المكتبة الصوفية

زبد خلاصة التصوف

المسمى بحل الرموز ومفاتيح الكنوز

تأليف

الإمام العز بن عبد السلام

ضبط وتحقيق

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار
توفيق على وهبة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الإمام العز بن عبد السلام
زبد خلاصة التصوف
مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة

E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

زُبَدُ خُلاصَةِ التَّصَوُّف

المسمّى بحلّ الرّموز ومفاتيح الكنوز

المكتبة الصوفية

زبد خلاصة التصوف

المسمى بحل الرموز ومفاتيح الكنوز

تأليف

الإمام العز بن عبد السلام

ضبط وتحقيق

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار
توفيق على وهبة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1430هـ - 2009

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد ـ القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابن عبد السلام ،عبد العزيز عبد السلام بن ابى القاسم بن الحسن ،118-1262
زبد خلاصة التصوف،المسمى ،سجل الرموز ومفاتيح الكنوز
العز بن عبد السلام ،ضبط وتحقيق : احمد عبد الرحيم السايح ، توفيق على وهبة
القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2009
194 ص ، 24 سم
تدمك : 3-418-341-977
1- التصوف الاسلامى
ا- السايح ، احمد عبد الرحيم (ضابط ومحقق)
ب-وهبة ،توفيق على (ضابط ومحقق مشارك)
ج - العنوان

ديوى: 260

رقم الايداع:7645

مقدمة

التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، إله واحد، فرد صمد لا شريك له في ملكه، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ونصلي ونسلم على خير خلقه، وخاتم رسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، بعثه سبحانه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة وتركها على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك

أما بعد:

فإن من شأن النابهين والباحثين عن العلوم والمعرفة، والدارسين للتراث الإسلامي وما خلفه العلماء المسلمون وأئمة السلوك أن يقفوا على هذه الأعمال التي عمرت بها قلوب، وجاهدت في سبيلها نفوس.

وعلى ذلك فالتصرف تجربة ذاتية، تخص السالك الذي يعاني التجربة ويكابدها.

ويذكر العلماء المنصفون أنه ليس من الصواب أن يخضع الإنسان التجارب الذاتية والتذوق لحكم العقل ومقولاته.

ولما كان لعلماء التصوف الإسلامي كثير من الكتابات في مسائل الإعتقاد والسلوك والأخلاق وفي أسس التصوف وقواعده وأصوله ورجاله ودورهم في خدمة الدين ونشر الدعوة، وغير ذلك الكثير، كان واجبًا علينا أن نقرأ التصوف قراءة واعية فاحصة دارسة.

فمن الأولى لنا أن نقرأ علم التصوف الإسلامي، وندرس ما فيه من

قضايا وماله من دور فاعل فى الدين والحياة .

وللإمام العز بن عبد السلام كتاب قيم فى علم التصوف باسم (حل الرموز ومفاتيح الكنوز) وكما هو ظاهر من عنوانه فإنه يحل ويشرح الرموز والمصطلحات التى يستعملها المتصوفة مما فيه غموض يشكل على غيرهم .

وقد اشتهر هذا الكتاب باسم (زبد خلاصة التصوف) وهو اسم على مسمى فهو من أهم وأفضل الكتب التى ألفت فى هذا العلم رغم صغر حجمه ولكنه جمع فأوعى فى أسلوب سهل مبسط وعلم غزير يشد انتباهك ويأخذ بأحاسيسك، فتراك مندمجًا مع المؤلف وصولا إلى ما يريد، وتراك مقتنعًا برأيه وإن كنت تخالفه من قبل فيما توصل إليه .

والكتاب عمومًا يستهوى القارئ بجزالة اللفظ، وسلاسة الأسلوب، وسلامة المنطق وصدق المعنى، فيجد نفسه مشدوداً، متابعًا لأفكار المؤلف وآرائه إلى أن ينتهى الكتاب .

وحيث أن هذا الكتاب خاص بحل رموز ومصطلحات أهل الطريق، فقد شرح وحل رموز شطحات بعض الصوفية وأولها تأويلاً حسنًا عملاً بأمر الشارع الحكيم بحسن الظن بالناس، وإن كان كثير من أكابر ومشايخ الصوفية ينكرون مثل هذه الشطحات، لما فيها من غموض يوهم بمخالفتها لكمال التوحيد، ويوحى ظاهرها أنها تخرج قائلها من الملة، لذلك حكم على بعض أصحاب هذه الشطحات بالقتل، وإن كان المؤلف كما قلنا قد خرجها تخريجًا حسنًا وحملها على حسن الباطن لدى قائليها . وقد علقنا عليها فى الهامش بما يناسبها .

وممن أنكر هذه الشطحات الجنيد بن محمد إمام الطائفة وأخرج

فى كتابه (إحياء علوم الدين) وذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقات الصوفية، والحافظ أبو بكر فى تاريخ بغداد .

وقد طبع كتاب (زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز) للإمام العز بن عبد السلام عدة طبعات فى مصر والهند .

إلا أنه من الأمانة العلمية أن نذكر أن بعض الباحثين[1] يرى أن الكتاب ليس من مؤلفات العز رحمه الله لأن هناك مخطوطات نسبت الكتاب إلى مؤلف آخر يتشابه فى الاسم مع الإمام العز بن عبد السلام هو العز بن عبد السلام ابن الشيخ أحمد المقدسى .

وممن نسب الكتاب لسلطان العلماء العز بن عبد السلام بر وكلمان فى كتاب تاريخ الأدب العربى (جـ١ ص ٤٨٨ – ٥٥٤) استناداً على وجود نسخة مخطوطة فى رام بور بالهند برقم ١ : ٣٣٥ .

ومما يرجح رأى بر وكلمان ما يلي :-

أولاً : لسلطان العلماء خمسة كتب أخرى فى التصوف هى :

١- شجرة المعارف والأصول وصالح الأقوال والأعمال

٢- الفتن والبلايا والمحن .

٣- رسالة فى القطب والأبدال الأربعين

٤- مقاصد الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبى .

٥- مسائل الطريقة فى علم الحقيقة .

---

(١) العز بن عبد السلام – حياته وآثاره ومنهجه فى التفسير – تأليف الدكتور عبد الله بن ابراهيم الوهيبى ص ١٦١ -١٦٢ ط أولى – المطبعة السلفية ومكتبتها – القاهرة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م.

ثانيًا: أن الكتاب طبع عن نسخ مخطوطة باسم العز بن عبد السلام.

ثالثًا: وجود بعض المخطوطات تنسب الكتاب إلى العز بن أحمد المقدسي ليس دليلا كافيا لنفى نسب الكتاب - للعز بن عبد السلام لوجود مخطوطات أخرى تنسبه إليه. فربما يخطئ الناسخ فى نسب الكتاب إلى مؤلفه.

وقد حدث ذلك فى مخطوط كتاب (لطائف الإعلام فى إشارات أهل الإلهام) للقاشانى حيث ذكر فى نهاية المخطوط تم الكتاب بعدون الله الملك الوهاب وهو (لطائف الإعلام فى اشارات أهل الإلهام) للإمام محى الدين بن عربى رغم أنه ذكر فى عنوان الكتاب أنه للقاشانى، ومقدمة الكتاب للقاشانى، ولكن الناسخ وهم فى ختام الكتاب فنسبه لابن عربى بطريق الخطأ لوجود كتيب صغير لابن عربى باسم مصطلحات الصوفية رغم أن كتاب القاشاني جزئين كبيرين، وكتاب ابن عربى جزء صغير.

وقد بينا هذا الخطأ عند تحقيقنا لكتاب لطائف الإعلام بالاشتراك مع صديقنا الأستاذ الدكتور عامر النجار[١].

ومن ذلك يتبين أن بعض النساخ أخطأ فى نسبة كتاب زبد خلاصة التصوف للمؤلف أو أن هناك كتاب لمؤلف آخر بنفس العنوان ولكن الأرجح أن هذا الكتاب من تأليف سلطان العلماء العز بن عبد السلام.

---

(١) راجع ذلك ص ٧٢٤ جـ٢ من الكتاب المذكور - ط مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ٢٠٠٥.

وعموماً سواء كان هذا الكتاب من تأليف هذا العز أو ذاك العز فهو كتاب نادر، عزيز أن يوجد مثله إن لم يكن محال لتميزه فى أسلوبه وعلمه وغايته ومادته وهدفه وقدر مؤلفه.

ومن المهم نشر هذا الكتاب وتيسير قراءته واقتنائه بل وحفظه إن أمكن، فهو درة من درر التصوف.

وهذا ما دفعنا إلى تحقيقه.

هذا وقد بدأنا الكتاب بباب تمهيدى من ثلاثة فصول:

١- **الفصل الأول**: التصوف ودوره فى خدمة الإسلام.

٢- **الفصل الثانى**: سلطان العلماء - العز بن عبد السلام - بقلم تلميذه شيخ الإسلام ابن دقيق العيد، وهذا المبحث وجد فى نهاية الكتاب، وقد آثرنا أن يكون ضمن المقدمات لأنه ليس من فصول الكتاب.

٣- **الفصل الثالث**: التعريف بالعز بن عبد السلام.

ثم يأتى بعد ذلك النص المحقق.

نسأل الله سبحانه وتعالى: أن ينفع به وإن يجعله من صالح الأعمال. إنه ولى ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حققه وضبطه وقدم له

الأستاذ الدكتور	المستشار
أحمد عبد الرحيم السايح	**توفيق علي وهبة**

بـــاب

تمهیدی

الفصل الأول
التصوف ودوره فى خدمة الإسلام

التصوف علم وعمل، العلم بالأحكام الشرعية المستنبطة من الكتاب والسنة والعمل بها.

والصوفية يقسمون العلم إلى ظاهر وباطن، وعلم الظاهر هو العمل بالكتاب والسنة وعلم الباطن هو أعمال القلوب أو هو كما يسميها بن تيمية الأحوال والمقامات[١].

والتصوف الحق هو أن يكون علم الباطن مطابقاً لعلم الظاهر، فمن اختلف باطنه عن ظاهره فليس منهم وينكرون عليه ذلك، بل ويطردونه من بينهم لأن كل ظاهر خالف الباطن فهو باطل .

يقول الإمام الشعرانى : من لم يأخذ بالكتاب والسنة فلا تستمعوا له حتى لو طار فى الهواء أو مشى على الماء[٢] .

وقد كثر وجود الزهاد والعباد فى مصر قبل الإسلام، فلما دخل الإسلام مصر، واعتنق أهلها دين الله، استمر تيار الزهد والتعبد، وعكف البعض على العبادة وانقطعوا إلى الله وأعرضوا عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها، وزهدوا فيما يقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه . وانفردوا عن الخلق فى الخلوة للعبادة .

وقد كان هذا هو أصل التصوف، كما يقول ابن خلدون، وقد كان هذا

---

(١) راجع المقامات والأحوال لابن تيمية – تحقيق وضبط أ.د أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبة.

(٢) راجع تنبيه المغترين للإمام الشعرانى : تحقيق وضبط أ.د أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبة.

عاماً فى الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى للهجرة وما بعده، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية[1].

والصوفية يقدمون التعبد على التأمل، والعمل على البحث والنظر، والاهتمام بالسلوك والأعمال القلبية وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والتقشف والحرمان والزلفى إلى الله[2].

ويرى المؤرخون أن التصوف بدأ مبكراً منذ الدعوة الإسلامية وقد نشأ من التأمل المتواصل للقرآن الكريم والأحاديث النبوية. وعلى ذلك يكون قد نشأ نشأة إسلامية خالصة ومن داخل الإسلام نفسه، وليس كما يدعى البعض أنه دخيل على الإسلام،وأن أصوله هندية وفارسية إلى غير ذلك مما شطح به خيال البعض. فالتأثير الإسلامى المتمثل فى القرآن والسنة واضح جلى فى فكر وعمل الصوفية وخاصة فى العصور الأولى لظهوره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أن لفظ "الصوفية" لم يكن مشهوراً فى القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقدنقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل، وأبى سليمان الدارانى، وغيرهما. وقد روى عن سفيان الثورى أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصرى، وتنازعوا فى "المعنى" الذى أضيف إليه الصوفية- فإنه من أسماء النسب كالقرشى، والمدنى، وأمثال ذلك.

فقيل: إنه بالنسبة إلى "أهل الصفة" وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك قيل: صُفِّى. وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله وهو أيضاً غلط؛ فإنه لو كان

---

(١) المقدمة: ابن خلدون ص ٤٠٨ التصوف في مصر آبان العصر التركى. د. توفيق الطويل.

(٢) توفيق الطويل – المرجع السابق ص ٣٧.

كذلك لقيل صَفِّى. وقيل نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صفوى، وقيل نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طانجة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك.

وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ. فإنه ضعيف أيضاً؛ لأن هؤلاء غير مشهورين، ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين و تابعيهم أولى. ولأن غالب من تكلم باسم "الصوفى" لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة فى الجاهلية لا وجود لها فى الإسلام.

وقيل: وهو المعروف- أنه نسبة إلى لبس الصوف؛ فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة؛ وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك، ما لم يكن فى سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال فقه كوفى، وعبادة بصرية. وقد روى أبو الشيخ الأصبهانى بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قوماً يتخيرون الصوف، يقولون إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم، وهدى نبينا أحب إلينا، وكان النبى ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلاما نحوا من هذا.

ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة فى هذا الباب بإنما هو عن عباد أهل البصرة، مثل حكاية من مات و غشى عليه فى سماع القرآن ونحوه كقصة زرارة بن أوفى قاضى البصرة فإنه قرأ فى صلاة الفجر ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾(١) فخر ميتاً. وكقصة أبى جهير الأعمى الذى قرأ عليه صالح المرى فمات، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوب باستماع قراءته.

---

(١) [سورة المدثر: اية ٨].

وكان فيه طوائف يصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن فى الصحابة من هذا حاله؛ فلما ظهر ذلك أنكر طائفة من الصحابة والتابعين كأسماء بنت أبى بكر، وعبد الله بن الزبير ومحمد بن سيرين ونحوهم.

وللمنكرين مأخذان:

منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً. يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال: ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط فإن خر فهو صادق.

ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدى الصحابة. كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله.

والذى عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه؛ ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا. فقال: قرئ القرآن على يحى بن سعيد القطان فغشى عليه ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد؛ فما رأيت أعقل منه، ونحو هذا.

وقد نقل عن الشافعى أنه أصابه ذلك، وعلى بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب فى صدقه.

لكن الأحوال التى كانت فى الصحابة هى المذكورة فى القرآن. وهى وجل القلوب، ودموع العين، واقشعرار الجلود، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ**

---

(١) [سورة الأنفال: آية ٢].

اللَّه ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾[2]، وقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾[3] وقال: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[4].

وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها، والجفاء عن الدين، ما هو مذموم وقد فعلوا، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

بل المراتب ثلاث:

(أحدها) حال الظالم لنفسه الذى هو قاسى القلب، لا يلين للسماع والذكر، وهلاء فيهم شبه من اليهود. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[6].

و**(الثانية)** حال المؤمن التقى الذى فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه. فهذا الذى يصعق صعق الموت، أو صعق غشى، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد،

---

(١) [سورة الزمر: آية ٢٣].
(٢) [سورة مريم: آية ٥٨].
(٣) [سورة المائدة: آية ٨٣].
(٤) [سورة الإسراء: آية ١٠٩].
(٥) [سورة البقرة: آية ٧٤].
(٦) [سورة الحديد: آية ١٦].

وضعف القلب عن حمله، وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أو يحب أموراً دنيوية، يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب عقله. ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه، وكذلك في غيره، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله، أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك.

فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان، لم يكن فيه ذنب فيما أصابه، فلا وجه للريبة. كمن سمع القرآن السماع الشرعي، ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء، ونحو ذلك من الأمور التي تغيب بالعقل بغير اختيار صاحبها؛ فإنه إذا لم يكن محظوراً لم يكن السكران مذموماً.

ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً، إما بسبب خلط يغلب عليه، وأما بغير ذلك، ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون في النساك، وقد يسمون المولهين، قال فيهم بعض العلماء هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولاً وأحوالاً؛ فسلب عقولهم وأسقط ما فرض بما سلب.

فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشي أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك. إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله.

ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله

أو أكمل منه فهو أفضل منهم. وهذه حال الصحابة رضى الله عنهم وقد روى أن عطاء السليمى رضى الله عنه رؤى بعد موته فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لى: يا عطاء! أما استحيت منى أن تخافنى كل هذا؟ أما بلغك أنى غفور رحيم؟!.

وكذلك ما يذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة، وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضى الله عنهم وعلى ما سنه الرسول أمور توجب أن يصير الناس طرفين.

قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا فى ذلك. وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها.

والتحقيق أنهم فى هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين فى مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك.

والصواب: للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وخير القرون الذى بعث فيهم، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو وأصحابه، ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(١) وقال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» وقال: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٢) وأن كثيراً من المؤمنين -المتقين أولياء الله- قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتقى الله ما استطاع ويطبعه بحسب اجتهاده فلابد أن يصدر منه خطأ إما فى علومه وأقواله وإما فى أعماله وأحواله،

(١) [سورة التغابن: آية ١٦].

(٢) [سورة المؤمنون: آية ٦٢].

ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم؛ فإن الله تعالى قال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾(١).

فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من العباد والنساك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ، ضال مبتدع ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً، فهو مخطئ ضال مبتدع.

وأهل السنة والجماعة يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وهو أن المؤمن يستحق وعد الله وفضله الثواب على حسناته، ويستحق العقاب على سيئاته، وإن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه، وما يعاقب عليه، وما يحمد عليه وما يذم عليه، وما يحب منه وما يبغض منه، فهذا هذا.

وإذا عرف أن منشأ "التصوف" كان من البصرة، وإنه كان فيه من يسلك طريق العبادة والزهد، مما له فيه اجتهاد، كما كان في الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف. فقيل في أحدهم: "صوفي" وليس طريقهم بلباس الصوف،، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

ثم "التصوف" عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم: "الصوفي" من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر. التصوف كتمان المعاني،، وترك الدعاوى، وأشباه

---

(١) [سورة البقرة آية ٢٨٥].

ذلك: وهم يسيرون بالصوفى إلى معنى الصديق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون. كما قال الله تعالى: ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾(١) ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفى: لكن هو فى الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذى اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذى اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال: صديقوا الأمراء، وصديقوا الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

والصواب، أنهم مجتهدون فى طاعة الله. كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم فإن أكثر مشائخ الطريق أنكروهم، وأخرجوهم عن الطريق. مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره(٢). كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى: فى طبقات الصوفية، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد.

فهذا أصل التصوف. ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية

---

(١) [سورة النساء: آية ٦٩].

(٢) أى أن الجنيد رحمه الله أنكر ذلك وأخرج أهل البدع الزندقة من بين صفوف أهل التصوف.

"ثلاثة أصناف"

صوفية الحقائق

وصوفية الأرزاق

وصوفية الرسم.

فأما "صوفية الحقائق" فهم الذين وصفناهم.

وأما "صوفية الأرزاق" فهم الذين وقفت عليهم الوقوف. كالخوانك فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق. فإن هذا عزيز وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك؛ ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط:

(أحدهما) العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم.

و(الثانى) التأدب بآداب أهل الطريق، وهى الآداب الشرعية فى غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية فلا يلتفت إليها.

و(الثالث) أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك.

وأما "صوفية الرسم" فهم المقتصرون على النسبة، فهمهم فى اللباس والآداب الوضعية، ونحو ذلك فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم.

و"أولياء الله" هم المؤمنون المتقون سواء سمى أحدهم فقيراً أو صوفياً أو فقيهًا أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك.

فقال الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(١) وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: "من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه" وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله المقتصدين، أصحاب اليمين والمقربين السابقين.

فالصنف الأول: الذين تقربوا إلى الله بالفرائض والصنف الثاني: الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم، كما قال تعالى.

وهذا "الصراط المستقيم" يشتمل على علم وعمل: علم شرعي، وعمل شرعي، فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجراً، ومن عمل بغير علم كان ضالاً، وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾(٢).

فالسالك طريق "الفقر والتصوف والزهد والعبادة" إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة، وإلا كان ضالاً عن الطريق، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه. والسالك من "الفقه والعلم والنظر والكلام" إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجراً ضالاً عن الطريق. فهذا هو الأصل الذي يجب اعتماده على كل مسلم(١)

---

(١) [سورة يونس: آية ٦٢، ٦٣].

(٢) [سورة الفاتحة: آية ٦-٧].

أ.هـ.بتصرف.

رأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى التصوف:

لم أجد للشيخ محمد بن عبد الوهاب موقفاً معادياً للصوفية أو إنكاراً على أهل التصوف أو أحد مشايخهم بسبب تصوفه. ولكن إنكاره هو والإمام ابن تيمية كان على الدخلاء وأصحاب البدع والأفكار المنحرفة.

يقول: اعلم أرشدك الله أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى الذى هو العلم النافع، ودين الحق الذى هو العمل الصالح.

فممن ينتسب إلى الدين من يعمل بالعلم والفقه ويقول به وهؤلاء هم الفقهاء، ومنهم من يعمل فى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية، فبعث الله نبيه ﷺ بهذا الدين الجامع للنوعين.

ويتحدث عن أعمال القلوب التى يسميها علم السلوك، ولا يعيب على القوم فى ذلك. ويقول أسعدهم بها من سلك فيها المنهاج المحمدى فلم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين.

ويقول: كان مشايخ الصوفية العارفون يوصون كثيراً بمتابعة العلم. قال بعضهم: «ما ترك أحد شيئاً من السنة إلا لكبر فى نفسه».

وعلق على ذلك بقوله: وهو كما قال: فإنه إن لم يكن متبعاً لما جاء به الرسول كان متبعاً لهواه بغير هدى وهذا عيش النفس، وهو من الكبر. فإنه شعبة من القول الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾(٢)(٣).

ويقول الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب:

---

(١) التصوف لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق أ.د أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبة ط مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م. ص ١٠ / ٤٥ بتصرف

(٢) المرجع السابق. (٣) [سورة الأنعام آية ١٢٤].

(ولا ننكر الطريقة الصوفية وتغزيه الباطن من رذائل المعاصى المتعلقة بالقلب والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعى والمنهج القويم المرعى) .

إلا أننا لا نتكلف له تأويلاً فى كلامه ولا فى أفعاله، ولا نعول ونستعين ونستنصر ونتوكل فى جميع أمورنا إلا على الله تعالى[1]، «وهو حسبنا ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير» وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم[2].

ولقد أثبت البحث العلمى الصحيح والنزيه أن ابن تيمية لم يكن معادياً للصوفية بل ذكر البعض أنه كان صوفياً منتسباً إلى الطريقة القادرية . واستند فى ذلك إلى سلسلة شيوخ ابن تيمية التى تبدأ بموفق الدين بن قدامة تلميذ الشيخ عبد القادر المباشر وخريج المدرسة القادرية ببغداد .

واستندوا كذلك إلى الاحترام والتقدير اللذين يبثهما ابن تيمية فى كتاباته للشيخ عبد القادر فهو فى رسائله وكتبه يشير إلى الشيخ عبد القادر بنفس المستوى الذى يشير فيه إلى الإمام أحمد بن حنبل من خلال الألقاب التى يسبغها عليه .

فهو قطب العارفين، وهو شيخنا أبو محمد قدس الله روحه، وهو أعظم زمانه أمراً بالتزام الشرع، وهو كثير الاستشهاد به كنموذج يحتذى به له فى التصوف .

ونحن لا نرى رأيهم، ولكن نرى أن تقديره واحترامه للشيخ عبد القادر وغيره من أئمة التصوف يرجع إلى أنه لا ينكر التصوف والزهر وتنزيه الباطن، وإنما ينكر الدخلاء والأفكار والمعتقدات المنحرفة، وهذا ما يجب أن يكون عليه الموقف

---

(١) مجموعة رسائل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، طبعت ضمن مجموعة الأعمال الكاملة . ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

(٢) المرجع السابق .

النزيه من التصوف وأهله.

وقد شرح كتاب فتوح الغيب[1]، كما شرح **مقتطفات من أقوال الشيخ** عبد القادر[2]. وشرح الرسالة القشيرية وعلق عليها في كتابه (**الاستقامة**)[3]

هذا هو موقف الإمامين الجليلين أحمد بن حنبل ومحمد بن عبد الوهاب من التصوف وأهله. وكما قلنا أنهما لم ينكرا على التصوف وأهله وإنما أنكرا ما هو دخيل ومنحرف ومخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

فما بالنا نجد بعض أتباعهما وتلاميذهما المنتسبين إليهما من المعاصرين يهاجمون التصوف ويدعون أن إماميهما يعارضانه دون سند أو دليل. لدرجة أن أحد هؤلاء المعاصرين بعد أن رفض التصوف من كل الوجوه قال:

حتى إذا كان التصوف هو العمل بالكتاب والسنة، فلسنا فى حاجة إلى التصوف والكتاب والسنة فيهما الكفاية عما سواهما.

وهذا فكر عقيم ورأى سقيم، إذ أن هذا القول ينطبق على جميع المذاهب الإسلامية فكلها تسير على هدى الكتاب والسنة، فإذا أخذنا برأى ذلك المعترض لهدمنا الفقه، ولألغينا تراث الأمة ولفتحنا باباً للخلافات والاختلافات لا يمكن غلقه.

فأدعوا هذا المنكر وأمثاله إلى التأدب بأدب شيخيه وأن يراجع ما يقولانه فى الصوفية وأهل التصوف قبل أن يطلق لفكره العنان فى مهاجمة قوم من الصالحين. ليس لهم هدف إلا السير على هدى الكتاب والسنة ونهج طريق سلفهم الصالح للوصول إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) فتوح الغيب للشيخ عبد القادر الجيلانى شرح شيخ الإسلام ابن تيمية – تحقيق أ.د أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبة – ط مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٥.

(٢) مجموع الفتاوى جـ ١٠ ص ٢٤٨، ٦٦٨.

(٣) راجع الاستقامة – ط ١ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية جـ١ ص ٨٠ وما بعدها وكذا الجزء الثانى.

رأى علماء التصوف:

١- يقول أبو النصر السراج الطوسى المتوفى سنة ٣٧٨ هـ:

إن سائل سائل فقال قد نسب أصحاب الحديث إلى الحديث، ونسب للفقهاء الفقه، فلم قلت الصوفية لم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم، ولم تضف إليهم حالاً كما أضفت الزهد إلى الزهاد، والتوكل إلى المتوكلين، والصبر إلى الصابرين؟

فيقال له لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع. ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم، ومستجمع جميع الأحوال والأخلاق المحمودة الشريفة فلذلك نتخذ ظاهرهم مناطاً للتسمية.

ونسميهم صوفية لأنهم يلبسون الصوف، وارتداء الصوف إنما كان دأب الأنبياء والصديقين والحواريين والزهاد(١).

ورداً على من قال إن هذه التسمية ظهرت فى القرن الثانى الهجرى، يقول: وأما قول القائل إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال لأن فى وقت الحسن البصرى رحمه الله كان يعرف هذا الإسم وقد أدرك الحسن البصرى صحبة جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وقد روى عنه أنه قال: رأيت صوفياً فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى.

٢- قال أبو محمد رويم بن أحمد البغدادى وهو من أكابر الصوفية مات سنة ٣٠٣ هـ:

إن التصوف مبنى على ثلاث خصال:

---

(١) اللمع للطوسى، ص ٤٠، ٤١.

الأولى: التمسك بالفقر والافتقار.

الثانية: التحقق بالبذل والإيثار.

الثالثة: ترك التعرض والاختيار واسترسال النفس مع الله تعالى ما يريد.

٣- ويرى معروف الكرخي: أن التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدى الخلائق، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف.

٤- ويرى الجنيد: أن التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به.

٥- ويرى عمرو بن عثمان المكي: أن التصوف هو أن يكون العبد في كل وقت مشغولاً بما هو أولى في الوقت.

٦- وهناك آراء أخرى نسبت إلى بعض الصوفية، منها أنه ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع، وقيل أن أوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة من الله تعالى[١].

٧- ومنها أن التصوف هو تصفية القلب من مراجعة الخلق، والمفارقة من أخلاق الطبيعة، وإماتة الصفات البشرية والابتعاد عن الدواعي النفسية، والنزول على الصفات الروحانية، والسمو إلى العلوم الحقيقية، واستعمال ما كان هو الأولى إلى الأبد، ونصيحة الأمة كلها والوفاء في العمل بالحقيقة ومتابعة النبي في الشريعة.

٨- ومنها أن التصوف هو أن يكون صافياً من ربه، ومليئاً بالأنوار، ويكون في عين اللذة من الذكر.

---

(١) عوارف المعارف، عمر السهرودي، تحقيق الأستاذ الدكتور احمد السايح والمستشار توفيق على وهبة ص ٢٠٨ نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦ م وانظر تذكرة الأولياء للعطار وكشف المحجوب للهجويري.

٩- ومنها أن التصوف هو ترك كل حظوظ النفس للحصول على النصيب الحق.

١٠- ومنها أن التصوف هو أن يكون كل شئ ملكاً لك، ولا تكن أنت ملكاً لأى شئ.

١١- يقول الإمام عبد الوهاب الشعرانى: إن علم التصوف، عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حيث استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل بها انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها، نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها.

فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من عمله العلل وحظوظ النفس كما أن علم المعانى والبيان زبدة علم النحو. فمن جعل علم التصوف علماً مستقلاً صدق، ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق، كما أن من جعل علم المعانى والبيان علماً مستقلاً فقد صدق، ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق(١).

ومن تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية، أدرك بذوقه أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة، فإذا دخل العبد عن طريق القوم وتبحر فيها، أعطاه الله هناك قوة الاستنباط، نظير الأحكام الظاهرة على سواء، فيستنبط فى الطريق واجبات ومندوبات وآداباً ومحرمات ومكروهات.

ومن دقق النظر علم أنه لا يخرج شئ من علم أهل الله تعالى عن الشريعة،

---

(١) الإمام عبدالوهاب الشعرانى: الطبقات الكبرى، جـ١ تحقيق وضبط أ.د أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبة ط مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ٢٠٠٥.

وكيف تخرج علومهم عن الشريعة، والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة، لكن أصل استغراب من لا إلمام له بأهل الطريق، أن علم التصوف من عين الشريعة، كونه لم يتبحر في علم الشريعة، فكل صوفي فقيه ولا عكس[١].

ويرى السراج الطوسي أن الفقه والتصوف يعتبران علماً واحداً، وأن علم الفقه قائم على الرواية، وأن علم التصوف قائم على الدراية.

وأن العلم متى كان في القلب، فهو باطن إلى أن يجرى على اللسان ويظهر، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر.

وتنقسم أعمال الجوارح الظاهرة إلى عبادات، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم وغير ذلك.

وإلى أحكام مثل الطلاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها.

أما علم التصوف: فهو قائم على الجارحة التي هي القلب.

ولكل عمل من الأعمال الظاهرة أو الباطنة علم وفقة وبيان وفهم وحقيقة ووجد، ودليل صحة وعمل: منها آيات من القرآن وأخبار عن الرسول ﷺ[٢].

ويستدل الطوسي على حديثه من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[٣].

فالنعمة الظاهرة: هو فعل الطاعات، والنعمة الباطنة: هي ما أنعم الله بها على القلب من الأحوال والمقامات.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) اللمع، ص ٤٣.

(٣) [سورة لقمان: آية ٢٠].

ولكن لا يستغنى الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر، يقول الله: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[1].

فالعلم المستنبط هو علم التصوف، لأن للصوفية مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك[2].

متى بدأ التصوف:

يقول المؤرخون للتصوف الإسلامى إنه بدأ مبكراً منذ بداية الدعوة الإسلامية وبذلك يكون نشأ نشأة إسلامية خالصة ومن داخل الإسلام نفسه مستمداً قواعده من الكتاب والسنة.

وكان أول من سلك طريق الزهد والتصوف هم أهل الصفة فى عهد النبى ﷺ وكانوا من فقراء المسلمين انقطعوا للعبادة وانصرفوا عن ملذات ونعيم الدنيا.

وبجانب هذه الجماعة سلك أفراد من الصحابة طريق الزهد وأخذوا أنفسهم بالشدة والتقشف، وكثرة العبادة والتقرب إلى الله ومن أشهر هؤلاء:

١ – أبو الدرداء.

٢ – أبو ذر الغفارى.

٣ – عمران بن حصين الخزاعى.

٤ – أويس القرنى.

---

(١) [سورة النساء: آية ٨٣].

(٢) اللمع، السراج الطوسى، ص ٤٤.

ثم ظهر فى القرنين الأول والثانى الهجرى مجموعة أفراد آخرين سلكوا نفس الطريق، لم يكن لهم تنظيم يجمعهم، أو مكان يتقابلون فيه أو شيخ يتولى أمرهم، ولكنهم كانوا فرادى كما هو الحال مع الفئة السابقة، كل منهم يسلك الطريق بمفرده ومن أشهر هؤلاء العباد:

أ- فى القرن الأول الهجرى:

١- أبو الحسن البصرى.

٢- أيوب السختيانى من تلاميذ أبو الحسن البصرى.

٣- أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخى.

٤- مالك بن دينار ويكنى بأبى يحيى.

٥- عبد الواحد بن زيد.

ب- فى القرن الثانى الهجرى:

١- إبراهيم بن أدهم وقد شارك فى الجهاد ضد الصليبيين ويقال أنه استشهد فى هذه الحرب.

٢- شفيق البلخى.

٣- حاتم الأصم.

٤- الفضيل بن عياض.

بداية ظهور الطرق الصوفية

بدأت الطرق الصوفية فى الظهور فى صورتها الأولى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين وأخذوا ينظمون أنفسهم فى طوائف وطرق منذ النصف الثانى من القرن الثالث، وتتكون كل طريقة من شيخ وطائفة من المريدين يلتفون حوله. يعلمهم علم الظاهر وعلم الباطن، وعلم الاهر هو أحكام الشريعة المستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أما علم الباطن فهو الطريق إلى الله ويكون على مراحل وهو ما يسمى بالمقامات والأحوال، فالمقامات كالتوبة، والصبر، والرضا، واليقين، والأنس... الخ وهى كلها فضائل تأتى عن طريق مجاهدة النفس حتى يصل السالك إلى مقام التوحيد والمعرفة بالله تعالى.

وفى ذلك يقول حجة الإسلام الإمام الغزالى وأشمل وصف لسالكى الطريق:

اعلم أن السلوك هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف، وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن. والعبد فى جميع ذلك مشغول عن ربه[1]، إلا أنه مشتغل بتصفية باطنة ليستعد للوصول.

والذى يفسد على السالك سلوكه شيئان:

اتباع الرخص بالتأويلات والاقتداء بأهل الغلط من متبعى الشهوات.

ومن ضيع حكم وقته فهو جاهل ومن قصر فيه فهو غافل، ومن أهمله فهو

(١) يقصد بذلك المريد في بداية الطريق.

عاجز ولا تصح إرادة المريد حتى يكون الله ورسوله وسواس قلبه. ويكون نهاره صائماً، ولسانه صامتاً، وعينه دامعة وغامضة، وقلبه حزيناً، ولسانه ذاكراً.

والشكر والإنابة والخشية والتقوى والمراقبة والفكرة والاعتبار والخوف والرجاء والصبر والقناعة والتسليم والتفويض والقرب والشوق والوجد والوجل والحزن والندم والحياء والخجل والتعظيم والإجلال والهيبة(١).

ومن الخصائص أيضاً الكشف أو المشاهدة فيقولون: فلان يشاهد العلم، وفلان يشهد الوجد، وفلان يشاهد الحال ويريدون بذلك ما يكون حاضر قلب الإنسان، وهو ما كان الغالب عليه ذكره حتى كأنه يراه ويبصره، وإن كان غائبًا عنه، فكل ما يستولى على قلب صاحبه ذكره فهو يشاهده(٢).

ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوى أن الصوفية يقولون بوحدة الوجود وهى عندهم الاتحاد بالذات الإلهية أو بالواحد ويسلك الصوفى لتحقيقها بنفسه فى تجربته الذاتية، ذلك أن التصوف يقوم أساساً على السلوك والممارسة والتجربة الحية.

والصوفى يعيش نظرية وحدة الوجود فى تجربته الحية فليس على الصوفى أن يثبتها بل عليه أن يتلقاها مسلمة من صاحب العلم الإلهى ثم يعانيها تجربة حية(٣).

ويرى الدكتور بدوى أن فكرة وحدة الوجود تناظر ما يعرف بالغنوص فى

---

(١) راجع د. عبد الرحمن بدوى، تاريخ التصوف، ص ٣١، نقلاً عن السراج، اللمع ص ٢٣، ٢٤، وكذا المقامات والأحول لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق أ.د أحمد عبد الرحيم السايح، والمستشار توفيق وهبة، ط مكتبة الثقافة الدينية. ٢٠٠٤.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٤٤

(٣) د. عبد الرحمن بدوى، مرجع سابق، ص ٢٢.

العصر المسيحى الهلينى. فهذه الكلمة تدل فى كتابات من عرفوا (بالغنوصيين) على رؤية الحق مباشرة، لا عن طريق البحث والبرهان .

يقول فالنتينوس، وهو من أكبر العنوصيين: من له قلب مطهر، يشع بالنور، هو الذى يظفر برؤية الله[1] . أ.هـ بتصرف يسير.

الرد على دعوى بدوى:

وهذا الذى ذهب إليه الدكتور بدوى رحمه الله مردود، ووجهة نظر لا يسندها دليل، ولا يؤيدها برهان . فمعظم الطرق وكبار العلماء ومشايخ الصوفية لا يؤيدون نظرية وحدة الوجود . ويرفضونها جملة وتفصيلاً، ولا يأخذ بهذه الفكرة إلا بعض علاة الصوفية، ولم تلق قبولاً لدى الكثيرين.

وقد سبق عرض آراء بعض رجال التصوف وهى فى مجموعها تؤكد على الأخذ بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ . ومن خالفهما لا يسمع له حتى وإن طار فى الهواء أو مشى على الماء.

يقول الجنيد رحمه الله : لا يستحق أن يكون شيخاً حتى يأخذ حظه من كل علم شرعى، وأن يتورع عن جميع المحارم، وأن يزهد فى الدنيا، وألا يشرع فى مداواة غيره إلا بعد فراغة من مداواة نفسه، وحتى يكون على علم يهدى به العباد، فإذا مرض مريد بسبب شبهة فى علم التوحيد داواه، وإذا تحير فى مسألة من مسائل الفقه أفتاه، ويشترط بأن يكون لديه القناعة بالغنى عن الناس، وأن يخاف ويخشى من المعاصى والأدناس، وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة.

---

(١) . عبد الرحمن بدوى، مرجع سابق، ص ٢٢ .

وإياك واتباع من لم يكن على غير هذه الصفات، فإنه من جنود الشيطان،

زن أقواله وأفعاله بميزان الشريعة والطريقة، فإن رأيت منه شيئا مخالفا للشرع فاتركه حتى وإن كان ذا حال صحيح، فما عليك فى رده بحكم الشرع من بأس، ولا تتخذه مرشداً(١).

رأى الإمام أبو حامد الغزالى فى موضوع وحدة الوجودة:

يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله، الشطح ينقسم إلى قسمين:

أولهما: الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية. والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا كذا...

فهذا ومثله مما استطار فى البلاد شره، وعظم فى العوام ضرره حتى من نطق بشئ منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة.

ثانيهما: كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، ليس وراءها طائل(٢).

هذا هو رأى أحد أكبر أئمة التصوف فيما أثاره الدكتور عبد الرحمن بدوى حول فكرة وحدة الوجود التى يرفضها السواد الأعظم من الصوفية، على عكس ما يراه الدكتور بدوى رحمه الله.

---

(١) أ.د عامر النجار، الطرق الصوفية، ص ٣٣.

(١) الإمام أبو حامد الغزالى، الإحياء جزء ٣، ص ٣٦.

الطرق الصوفية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين:

لقد ظهرت طرق صوفية لها تنظيمها الخاص، تعمل من خلال شيخ أو مرشد وله مريدون يتبعونه . ويسيرون على طريقته، وحسب ما يعلمهم من علم الكتاب والسنة وعلم الباطن (المقامات والأحوال) .

ومن هذه الطرق :

١- الطريقة الملامتية أو القصارية .

٢- الطريقة الطيفورية .

٣- الطريقة الخرازية .

٤- الطريقة الحلاجية .

٥- النورية .

٦- الجنيدية .

الطرق التى ظهرت فى القرن الخامس:

الطريقة الغزالية : نسبة إلى الإمام أبو حامد الغزالى .

الطرق الصوفية التى ظهرت فى القرنين السادس والسابع:

١- الطريقة القادرية .
٢- الطريقة الأحمدية .
٣- الطريقة الأكبرية .
٤- الطريقة البرهامية .
٥- الطريقة الرفاعية .
٦- الطريقة العربية أو البدوية .
٧- الطريقة الشاذلية .
٨- الطريقة السهروردية .

وغيرها كثير فى العالمين العربى والإسلامى[١].

وأصبحت لفظة طريقة عند الصوفية المتأخرين تطلق على مجموعة من أفراد الصوفية ينسبون إلى شيخ معين ويخضعون لنظام دقيق من السلوك الروحى، ويحيون حياة جماعية فى الزوايا والربط والخانقانات. أو يجتمعون اجتماعات دورية فى مناسبات معينة، ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام.

وهذا ما انتهت إليه الطريقة منذ القرنين السادس والسابع الهجريين والقرون التالية لهما. فوجدنا الطريقة عهداً بين شيخ ومريده على التوبة والاستقامة والدخول فى طريق الله وذكره دائماً والعمل بآداب وأصول الطريقة التى يتبعها المريد. مع القيام بأوراد وأحزاب شيخ الطريقة فى المواعيد التى يحددها له[٢].

المرأة والتصوف

تحدث الإمام بن حزم الظاهرى عن جواز الولاية، وما يتبعها من الكرامة والعرفان للنساء فقال:

هذا فضل لا نعلمه حدث النزاع فيه إلا عندنا بقرطبة وفى زماننا[٣]. فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة فى النساء جملة، وبدعت من قال ذلك. وذهبت طائفة إلى القول بأنه قد كانت فى النساء نبوة. وذهبت طائفة إلى التوقف عن ذلك.

---

(١) دكتور محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية في الإسلام، ص ١٣٤، ١٩٢-١٩٣، د. السيد محمد عقيل المهدلى، دراسة في طرق الصوفية، ص ١٦.

(٢) أ.د عامر النجار الطرق الصوفية، ص ٢٥، ط. دار المعارف.

(٣) كانت وفاة ابن حزم رحمه الله عام ٤٥٦هـ راجع الفصل لابن حزم، تحقيق أ.د محمد إبراهيم نصر وأ.د. عبد الرحمن عميرة ط دار اللواء بالرياض والإسلام والتصوف بقلم ما سينيون ومصطفى عبد الرازق، ط. دار الشعب ١٩٧٩.

وكلام ابن حزم صريح فى أنه لا نزاع فى عدم حصول رسالة النساء بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ﴾(١) ولم يدع أحداً أن الله تعالى أرسل إمرأة وإنما الكلام فى النبوة.

والفرق بين النبوة والرسالة أن النبوة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام، فمن أوحى إليه الله علماً بما يكون قبل أن يكون. أو أمراً ما مع يقينه يقيناً ضرورياً بصحة ما أوحى إليه كعلمه بما أدرك بحواسه وبديهة عقله فهو نبى وذلك يكون بواسطة الملك.

أما الرسول فهو من أوحى إليه بدين يتبعه ويبلغه إلى الناس. وقد جاء القرآن بأن الله عز وجل أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحى حق من الله تعالى، فبشروا أم إسحاق بإسحاق، وقد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام فخاطبها وقال لها ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾(٢) ووجدنا أم موسى عليه السلام قد أوحى الله إليها بإلقاء ولدها فى اليم وأعلمها أنه سيرده إليها ويجعله نبياً مرسلاً. ويدرك كل ذى تمييز صحيح أنها لو لم تكن واثقة بنبوة الله لها لكانت بإلقائها ولدها فى اليم برؤيا تراها أو بما يقع فى نفسها فى غاية الجنون.

وتبين من هذا البحث أن المسلمين لم يتنازعوا فى جواز النبوة والولاية للنساء، ولا مانع من ذلك شرعاً ولا عقلاً، وقد اتفقوا على عدم وقوع الرسالة للنساء، كما اتفقوا على وقوع الولاية لهن واختلفوا فى وقوع النبوة على الوجه الذى بيناه، وفى هذا دليل على أن مجال الوحى والإلهام يستوى النساء فيه والرجال، فلا عائق يعوق المرأة عن أن تسمو بروحها إلى أقصى غايات السمو

---

(٢) [سورة يوسف: آية ١٠٩].

(٣) [سورة مريم: آية ١٩ آية ١٩].

المقدورة للبشر، بأن تصل إلى مرتبة العرفان والولاية وتشهد من جلال حضرة الربوبية مالا يشهده سائر البشر، وقد بلغت نساء هذه الدرجة الرفيعة فى عصور النهضة والرقى منذ نشأة التصوف الإسلامى.

وترحم الشعوانى فى كتاب الطبقات لأربعمائة وست وثلاثين من الصوفية الأخيار، بينهم ست عشرة إمرأة، كلهن من الطراز الأول بين أهل التصوف من أمثال معاذة العدوية، ورابعة العدوية، والسيدة عائشة بنت جعفر الصادق، والسيدة نفيسة أبنة الحسن بن يزيد، وهو لم يستوعب الصوفيات من النساء، بل اقتصر على جماعة منهم وجعل عنوان الفصل المختص بالنساء، فصل فى ذكر جماعة من عباد النساء رضى الله عنهن(١).

وما يكون لأحد أن يزعم أن فى الإسلام نزوعاً إلى الغض من الجانب الروحى للمرأة بعد الذى بيناه من استعدادها لمراتب الصوفية العليا التى تكشف فيها حجب الغيوب وتفيض على صاحبها الكرامات.

وما فى أحكام الشرع الإسلامى من وجوه التفرقة أحياناً بين المرأة والرجل يرجع إلى أمور مادية متصلة بالمادة كما فى التفاوت فى الإرث في بعض الحالات، والتفاوت فى الشهادة في بعض الأمور لا يبعد عن هذا النوع، فإن ضعف الذاكرة المعلل به نقص شهادتها ليس حيفاً بكمالها الروحى ولا باستعدادها للسمو الدينى(٢).

---

(١) الطبقات الكبرى للإمام القطب عبد الوهاب الشعرانى رحمه الله، بتحقيقنا والدكتور أحمد السايح جـ١ فصل في ذكر جماعة من عباد النساء رضى الله عنهن. مرجع سابق.

(١) راجع كتاب [المرأة في الإسلام – قضايا نسائية معاصرة القاهرة ٢٠٠٦] تاليف المستشار توفيق على وهبة وفيه بيان كامل عن حالات إرث المرأة وحالات الشهادة وأثبتنا بالدليل من الكتاب والسنة أن المرأة تفضل الرجل في بعض حالات الميراث وبعض قضايا الشهادة وغير ذلك من المجالات وبه رد على كثير من الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام.

وقد ناقش ابن حزم في كتاب الفصل آراء من يفضلون الرجال علي النساء مناقشة تدل علي أن فكرة التساوي في الفضل بين النساء والرجال كانت من الأفكار المؤيدة بين علماء المسلمين، وكان لها أنصار من طراز الإمام ابن حزم الظاهري.

قال أبو محمد: وقد قال قائل ممن يخالفنا في هذا: قال الله عز وجل: ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾(١) فقلنا وبالله التوفيق: فإذا أنت -عند نفسك- أفضل من مريم وعائشة وفاطمة؛ لأنك ذكر وهؤلاء إناث؟ فإن قال هذا الحق فقد كفر، فإن سأل عن معني الآية قيل له الآية علي ظاهرها أيضاً كالذكر، لأن هذه أنثي وهذا ذكر وليس من الفضل في شئ البتة، وكذلك الحمرة غير الخضرة، والخضرة ليست كالحمرة، وليس هذا من باب الفضل.

فإن اعترض معترض بقوله تعالي: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾(٢) قيل له إنما هذا في حقوق الأزواج علي الزوجات، ومن أراد حمل هذه الآية علي ظاهرها يلزمه أن يكون كل يهودي وكل مجوسي وكل فاسق من الرجال أفضل من أم موسي وأم عيسي وأم إسحاق عليهم السلام ومن نساء النبي ﷺ وبناته، وهذا كفر ممن قاله بإجماع الأمة.

وكذلك قوله تعالي: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾(٣) إنما ذلك في تقصيرهن في الأغلب عن المحاجة لقلة دربتهن، وليس في هذا ما يحط من الفضل عن ذوات الفضل منهن، فإن شغب مشغب بقول رسول

---

(٢) [سورة آل عمران: آية ٣٦].

(٣) [سورة البقرة: آية ٢٢٨].

(٤) [سورة الزخرف: آية ١٨].

الله ﷺ «ومـا رأيت من ناقـصـات عـقل ودين أسلب للب الرجل الحـازم من إحداكن»، قلنا له وبالله التوفيق:

إن حملت هذا الحديث علي ظاهره فيلزمك أن تقول إنك أتم عقلا ودينا من مريم وأم موسي وأم إسحاق ومن عائشة وفاطمة. فإن تمادي علي هذا سقط الكلام معه ولم يبعد عن الكفر؛ وإن قال: لا، سقط اعتراضه واعترف بأن من الرجال من هو أنقص ديناً وعقلاً من كثير من النساء،

فإن سأل عن معني هذا الحديث قيل له قد بين رسول الله ﷺ وجه ذلك النقص، وهو كون شهادة المرأة علي النصف من شهادة الرجل وكونها إذا حاضت لا تصلي ولا تصوم وليس هذا بموجب نقصان الفضل ولا نقصان الدين أو العقل في غير هذين الوجهين فقط(١)؛ إذ بالضرورة ندري أن في النساء من هن أفضل من كثير من الرجال وأتم ديناً وعقلاً في غير الوجوه التي ذكرها النبي ﷺ وهو عليه السلام لا يقول إلا حقاً، فصح يقيناً أنه عبر عليه السلام ما قد بينه في الحديث نفسه من الشهادة والحيض فقط، وليس ذلك مما ينقص الفضل فقد علمنا أن أبا بكر وعمر وعلياً شهدوا زنا لم يحكم بشهادتهم، ولو شهد به أربع منا عدول في الظاهر حكم بشهادتهم، وليس ذلك بموجب أننا أفضل من هؤلاء المذكورين.

وكذلك القول في شهادة النساء؛ فليست الشهادة من باب التفاضل في

---

(١) بين المؤلف المستشار توفيق على وهبة في كتابه المرأة في الإسلام – قضايا نسائية معاصرة أن موضوع شهادة المرأة خاص بموضوع توثيق الدين الوارد في آية الدين بسورة البقرة ولها أن تشهد وحدها دون الرجال في قضايا أخرى وليس في ذلك فضل لأحد على الآخر ولكن الضرورات الإجتماعية تقتضى ذلك، وبالنسبة للميراث فهى ليست على النصف دائمًا ولكن أحيانًا تساوى الرجل وأحيانًا أخرى تزيد عنه، وأحيانًا ترث ولا يرث.

ورد ولا صدر، لكن نقف فيها عند ما حده النص فقط، ولا شك عند كل مسلم في أن صواحبه من نسائه وبناته عليهم السلام كخديجة وعائشة وفاطمة وأم سلمة. أفضل ديناً ومنزلة عند الله تعالي من كل تابع أتي بعدهن، ومن كل رجل يأتي في هذه الأمة إلي يوم القيامة، فبطل الاعتراض بالحديث المذكور. وصح أنه ما فسرناه وبيناه والحمد لله رب العالمين.

قال أبو محمد: فإن اعترض معترض بقول النبي ﷺ كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وإمرأة فرعون وخديجة وفاطمة بنت الرسول ﷺ، فإن هذا الكمال إنما هو الرسالة والنبوة التي انفرد بها الرجال وشاركهم بعض النساء في النبوة، وقد يتفاضلون أيضاً فيها فيكون بعض الأنبياء أكمل من بعض ويكون بعض الرسل أكمل من بعض: قال الله عز وجل: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾(١) فإنما ذكر في هذا الخبر من بلغ غاية الكمال في طبقته ولم يتقدمه منهم أحد. وبالله تعالي التوفيق.

فإن اعترض معترض بقوله عليه السلام: «لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلي إمرأة» فلا حجة له بذلك، لأنه ليس امتناع الولاية فيهن بموجب لهن نقص الفضل، فقد علمنا أن ابن مسعود وبلالا وزيد بن حارثة رضي الله عنهم لم يكن لهم حظ في الخلافة وليس بموجب أن يكون الحسن وابن الزبير ومعاوية أفضل والخلافة جائزة لهؤلاء غير جائزة لأولئك ومنهم في الفضل ما لا يجهله المسلم.

وإذا كان الصوفية هم بناة المثل الأخلاقي الإسلامي الأعلي فإن للمرأة حظا غير منقوص في تشييد هذا الهيكل العظيم.

---

(١) [سورة البقرة: آية ٢٥٣].

وإننا لنجد في كتب التصوف والأخلاق ذكراً لمتصوفات سيرتهن شاهد ومثل يحتذي:

قال الجاحظ[1]:

والناسكات المتزهدات من النساء المذكورات في الزهد والرياسة من نساء الجماعة أم الدرداء ومعاذة العدوية ورابعة القيسية.

ومن نساء الخوارج السجا وحماة الصفوية وغزالة الشيبانية قتلن جميعاً وصلبت السجا وحماة وقتل خالد بن عتاب غزالة وكانت إمرأة صالح بن نوح.

ومن نساء الغالية الميلاء وحميدة وليلي الناعظية.

ولسنا نعرف مؤلفات في التصوف للنساء ولكنا نعرف من أثارهن واشعارهن وأخبارهن ما يقوم مقام الكتب المدونة. ويدل علي ما لبعضهن من مسألة الإمامة كرابعة، قال سفيان الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حباً لله وشوقاً إليه[2]. وهناك عدد من الصوفيات اشتهرن برواية الحديث[3].

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ جـ٥، ص ١٧٠.

(٢) الإسلام والتصوف – ما سينيون وعبد الرازق. وراجع الطبقات الكبرى للشعراني جـ١ مرجع سابق

(٣) روى السهرودى عن كريمة المروزية وغيرها – راجع عوارف المعارف بتحقيقنا واد. أحمد السايح ص ٤٨٨ – مرجع سابق. ولقد كان للإمام ابن حجر صاحب فتح البارى في شرح صحيح البخارى ثلاثة وتسعون شيخة أخذ عنهن الحديث

جهود الصوفية في خدمة المجتمع

كان للصوفية دور بارز في خدمة المجتمع، فلم يكونوا قابعين في الزوايا والتكايا والمساجد منقطعين للعبادة فقط، ولكنهم كانوا يساهمون مع إخوانهم وبني جلدتهم في النهوض بالمجتمع فقاموا بخدمات جليلة منها:

مساعدة المحتاجين والفقراء ونشر العلم فكانت زواياهم معقلاً للتعليم ومدارساً للمريدين وغيرهم، كما أنهم أقاموا مدارس نظامية، كالمدرسة القادرية ببغداد التي أقامها الشيخ عبد القادر الجيلاني وغيرها من المدارس في الهند ونيسابور وبخاري والري وغيرها من بلاد الإسلام.

ولقد كان لهم دور هام في الجهاد ضد الأعداء وفي محاربة الاستعمار فقد شارك الإمام أبو الحسن الشاذلى مع مجموعة من الفقهاء والعلماء والصوفية في صد الصليبيين عن المنصورة. كما شارك إبراهيم بن أدهم وهو أحد أبرز الصوفية في الحروب الصليبية ويقال أنه استشهد في إحدي هذه الحروب.

ولقد كانت الرباطات هي مقر حربي للصوفية للدفاع ضد الأعداء وفي التاريخ الحديث والمعاصر شارك الصوفية في محاربة الاستعمار الفرنسي والإيطالي في شمال إفريقيا، بقيادة الشريف السنوسي في ليبيا، والشيخ عبد القادر الجزائري في الجزائر.

والإمام بديع الزمان سعيد النورسى حافظ على الإسلام والدعوة الإسلامية في تركيا، ولازال تلاميذه يسيرون على منهجه وينشرون دعوته الإصلاحية في تركيا وخارجها ولهم مراكز دعوة متميزة في العديد من البلدان ومن بينها مدينة القاهرة.

كما شارك الصوفية في نشر الإسلام وعن طريقهم انتشر الإسلام في الهند والملايو وإندونيسيا وغرب ووسط إفريقيا. ولا يزال الإسلام ينتشر في إفريقيا انتشاراً كبيرا علي يد الطرق الصوفية هناك.

إذا كان للصوفية إسهامات بارزة في مجتمعات إسلامية عديدة فإن الأمل معقود عليهم لتكثيف جهودهم واستمرار إسهاماتهم الخيرة ولا سيما في مجال نشر الإسلام في أوساط غير المسلمين وخاصة في المجتمعات الإفريقية التي تقبل إقبالاً شديداً علي دعوة الطرق الصوفية وتدخل في دين الله أفواجاً.

كما أن للصوفية دور هام هذه الأيام في نشر الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا فقد لاقت دعوتهم في هذه الدول قبولاً كبيراً وعليهم الحفاظ علي هذه المكاسب والعض عليها بالنواجذ وأن يكونوا قدوة حسنة فالداعي القدوة له أثر كبير فيمن يدعوهم.

ولكي تنجح جهود الصوفية في نشر الإسلام والتوجه إلي غير المسلمين أود أن أؤكد علي ما يلي:

أولاً: حسن العلاقة والتعامل مع الآخر، والتأكيد علي المساواة في الأخوة الإنسانية فقد وجه الله سبحانه وتعالي النداء لكل البشر فقال جل وعلا: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾(١)، وقال: ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾(٢).

---

(١) سورة النساء آية ١

(٢) سورة الحجرات آية ١٣.

ثانياً : القدوة الحسنة والأسوة الطيبة فإذا كان الداعي إلي الله يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكان ظاهره مؤيداً لباطنه التف الناس من حوله واستجابوا لدعوته.

ثالثاً : إبعاد الفئات التي تندس وسط المجتمع الصوفي وهم ليسوا منهم لانحرافاتهم الدينية وأطماعهم الدنيوية، فمثل هؤلاء معول هدم ويسيئون إلي التصوف عموماً، بل ويسيئون إلي الإسلام نفسه.

رابعاً : تنقية كتب التراث الصوفي من كل ما تسرب إليه من فكر باطني ومن مخالفات شرعية وعقدية وأخلاقية تسئ إلي الإسلام قبل أن تسئ إلي التصوف[1].

---

(١) بدأنا مشروعا لتنقية كتب التراث ومن بينها التراث الصوفى وقد صدر حتى الآن ما ما يقارب الخمسين كتابا في مختلف فروع المعرفة.

الفصل الثانى

العز بن عبد السلام

بقلم تلمذه شيخ الإسلام ابن دقيق العيد[١]

قال الشيخ تاج الدين محمد بن على الملقب طوبر الليل، أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة.

كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقى الدين بن مجاهد الدين بن دقيق العيد لا يخاطب السلطان إلا بقوله: (يا إنسان) فما يخشاه ولا يتعبد له ولا ينحله ألقاب الجبروت، والعظمة، ولا يزينه بالنفاق ولا يداحيه كما يصنع غيره من العلماء، وكان هذا عجبًا، غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب أحدًا قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان)، فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين، ولا يرى أحسن ما فى هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية[٢].

ثم كان لا يعظم فى الخطاب إلا أئمة الفقهاء، فإذا خاطب منهم أحدًا قال له: (يا فقيه): على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين ابن الرفعة، ثم يخص علاء الدين بن الباجى وحده بقوله (يا إمام): إذ كان آية من آيات الله فى صناعة الحجة، لا يكاد يقطعه أحد فى المناظرة والمباحثة فهو كالبرهان إجلاله إجلال الحق، لأن فيه المعنى وتثبيت المعنى.

وقلت له يومًا يا سيدى، أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة؛ فإن

---

(١) هو أحد تلاميذ الإمام العز بن عبد السلام.

(٢) لا غرو فهو تلميذ نجيب لشيخه سلطان العلماء ابن عبد السلام وقد سار على نهجه لا يخشى فى الحق لومة لائم.

علوت قلت (يا إنسان) وإن نزلت قلت يا إنسان، أفلا يُسخطه هذا منك وقد تذوق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع؛ وخصه النفاق بكلمات هى ظل الكلمات التى يوصف الله بها، ثم جعله المُلك إنسانًا بذاته فى وجود ذاته، حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة. يتسويان فى العنصر ويتباينان فى القدر وأقله مهما قلَّ هو أكثرها مهما عظمت؛ ووجوده شيء ووجودها شيء آخر؟.

فتبسم الشيخ وقال: يا ولدى، إيش هذا؟ إننا نفوس لا ألفاظ، والكلمة من قائلها هى بمعناها فى نفسه لا بمعناها فى نفسها، فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يردّه الشرع عليه، ولو نافق الدين لبطل أن يكون دينًا، ولو نافق العالم الدينى لكان كل منافق أشرف منه، فلطخة فى الثوب الأبيض ليست كلطخة فى الثوب الأسود، والمنافق رجل مغطى فى حياته، ولكن عالم الدين رجل مكشوف فى حياته لا مغطى، فهو للهداية لا للتلبيس، وفيه معانى النور لا معانى الظلمة، وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل، فإذا نافق فقد كذب، والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين، فإذا نافق فقد كذب وغش وخان.

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم إمتداد لعمل النبوة فى الناس دهرًا بعد دهر، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور: تحويه فى نفسها وتلقيه على غيرها، فهى أداة لإظهار وإظهار جماله معًا.

أتدرى يا ولدى ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف؟ إن أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلور: يُظهر النور

نفسه فيه ويظهر حقيقته البلورية، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير.

وعالم السوء يفكر في كتب الشريعة وحدها، فيسهل عليه أن يتأول ويحتال ويغير ويبدل ويظهر ويخفى، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة، فهو معه في كل حالة يسأله ماذا تفعل وماذا تقول؟

والرجل الدينى لا تتحوّل أخلاقه ولا تتفاوت ولا يجىء كل يوم من حوادث اليوم فهو بأخلاقه كلها، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها: ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذى لو نطقت أفعاله لقالت لله بلسانه: هم يعطوننى الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك؟

إن الدينار يا ولدى إذا كان صحيحًا فى أحد وجهيه دون الآخر، أو فى بعضه دون بعضه، فهو زائف كله، وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم. فيبنزلون بذلك منزلة البهائم: تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها: والبطن الآكل فى العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله...

فإذا رأيت لعلماء السوء وقاراً فهو البلادة؛ أورقة فسمها الضعف، أو محاسنة فقل إنها النفاق أو سكوتًا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها.

قال الإمام: وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام فلقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئًا تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة، فلا يبالى هلك فيه أو عاش، إذ هو فى الدم كالقلب، لا

تناله يد صاحبه ولا يد غيره، ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم، فكان تجرده من أوهام القوة لا تغلب، وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته الروح السماوية التى تخيف كل شىء ولا تخاف، وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل فى طباع الناس. حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق فى جنازته حين مرت تحت القلعة: الآن استقر أمرى فى الملك، فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج علىّ لا نتنزع منى المملكه.

وكان سلطان فى دمشق الصالح إسماعيل، فاستنجد بالإفرنج على الملك نجم الدين أيوب سلطان مصر، فغضب الشيخ وأسقط اسم الصالح من الخطبة وخرج مهاجراً، فأتبعه الصالحُ بعض خواصه يتلطف به ويقول له: ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه إلا أن تنخشع للسلطان وتقبل يده. فقال له الشيخ: يا مسكين أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدى أنتم فى واد وأنا فى واد.

ثم قدم إلى مصر فى سنة ٦٣٩، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وتحفى به وولاه خطابة مصر وقضاءها، وكان أيوب ملكًا شديد البأس، لا يجسر أحد أن يخاطبه إلا مجيبًا، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء، وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم، وهم معروفون بالخشونة والبأس والفظاظة والاستهانة بكل أمر، فلما كان يوم العيد صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند ويُظهر ملكه وسطوته والأمراء يقبلون الأرض بين يديه: فناداه الشيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ العظيم: يا أيوب. ثم أمره بابطال منكر انتهى إلى علمه فى حانة تباع فيها الخمر، فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة واعتذر إليه.

فحدثني الباجي قال: سألت الشيخ بعد رجوعه من القلعة وقد شاع الخبر فقلت: يا سيدي، كيف كانت الحال؟.

قال: يا بني رأيته في تلك العظمة فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور فتبطره فكان ما باديته به.

قلت: أما خفته؟

قال: يا بني، استحضرتُ هيبة الله تعالى فكان السلطان أمامي كالقط ولو أن حاجة من الدنيا في نفسي لرأيته الدنيا كلها: بيد أني نظرت بالآخرة فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس، فلا عظمة ولا سلطان ولا بقاء ولا دنيا؛ بل هو لا شيء في صورة شيء.

نحن يا ولدي مع هؤلاء كالمعنى الذي يصحح معنى آخر، فإذا أمرناهم فالذي يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان، وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها، فما بدّ أن يقابلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحق في إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها فإذا كان ذلك فههنا المعنى بإزاء المعنى، فلا خوف ولا مبالاة ولا شأن للحياة والموت.

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم اليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها فيكون باطلاً مزوراً في صورة الحق، وههنا تكون الذات مع الذات، فيخشع الضعف أمام القوة، ويذل الفقر بين يدي الغنى، وترجو الحياة لنفسها وتخشى على نفسها، فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف.

كـلا يا ولدى إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير دقت فيها المسامير وإذا انفتق الثوب فمن أين للابرة أن تسلك بالخيط الذى فيها إذا هى لم تخزه؟

إن العالم الحق كالمسمار إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كل خشبة.

[أمراء للبيع]

قال الإمام تقى الدين وطغى الأمراء من المماليك وثقلت وطأتهم على الناس، وحيثما وجدت القوة السلطة المستبدة جعلت طغيانها واستبدادها أدبًا وشريعة، إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها، ففكر شيخنا فى هؤلاء الأمراء وقال: إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد، إذ يحسبون كل حسن منها هو الحسن، وإن كان قبيحًا فى ذاته ولا أقبح منه ويرون كل قبيح عندها هو القبيح وإن كان حسنًا ولا أحسن منه.

وقال: ما معنى الإمارة والأمراء؟ وإنما قوة الكل الكبير هى عماد الفرد الكبير، فلكل جزء من هذا الكل حقه وعمله، وكان ينبغى أن تكون هذه الإمارة أعمالا نافعة قد كبرت وعظمت فاستحقت هذا اللقب بطبيعة فيها كطبيعة: أن العشرة أكثر من الواحد، لا أهواء وشهوات ورذائل ومفاسد تتخذ لقبها فى الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس.

وفكر الشيخ فهداه تفكيره إلى أن هؤلاء الأمراء مماليك، فحكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، ويجب شرعا بيعهم كما يباع الرقيق.

بلغهم ذلك فجزعوا له وعظم فيه الخطب عليهم، ثم احتدم الأمر وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضى ابن عبد السلام.

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة، وأنه لا يصحح لهم شيئًا من هذا حتى يباعوا ويحصل عتقهم بطريق شرعي.

ثم جعلوا يتسببون إلى رضاه، ويتحملون عليه بالشفاعات، وهو مصر لا يعبأ بجلالة أخطارهم، ولا يخشى أتسامه بعدوانهم، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فأرسل إليه فلم يتحول عن رأيه وحكمه.

واستشنع السلطان فعله وحنق عليه وأنكر منه دخوله فيما لا يعتبه، وقبح عمله وسياسته وما تطاول إليه، وهو رجل ليس له إلا نفسه وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه، وهم وافرون وفى أيديهم القوة ولهم الأمر والنهى.

وانتهى ذلك إلى الشيخ الإمام فغضب ولم يبال بالسلطان ولا كبر عليه وإعراضه، وأزمع الهجرة من مصر، فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام، فلم يبعد إلا قليلا نحو نصف بريد حتى طار الخبر فى القاهرة ففزع الناس وتبعوه لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبى، وصار فيهم العلماء والصلحاء والمحترفون كأن خروجه خروج نبى من بين المؤمنين به، واستعلنت قوة الشرع فى مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير، فقيل للسلطان إن ذهب هذا الرجل ذهب ملكك.

فارتاع السلطان فركب بنفسه ولحق بالشيخ يترضاه ويستدفع به غضب الأمة وأطلق له أن يأمر بما شاء وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه ولبس طيلسان العلماء كما يلصق الريش على حجر فى صورة الطائر.

ورجع الشيخ وأمر أن يعقد المجلس ويجمع الأمراء وينادى عليهم

للمساومة فى بيعهم وضرب لذلك أجلا بعد أن يكون الأمر قد تعالمه كل القاهرة ليتهيأ من يتهيأ للشراء والسوم فى هذا الرقيق الغالى.

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه فلم يعبأ الشيخ به فهاج هائجه وقال كيف يبيعنا هذا الشيخ وينادى علينا وينزلنا منزلة العبيد ويفسد محلنا من الناس ويبتذل أقدارنا ونحن ملوك الأرض، وما الذى يفقد هذا الشيخ من الدنيا فيدرك ما نحن فيه، إنه يفقد ما لا يملك ويفقد غير الموجود، فلا جرم لا يبالى ولا يرجع عن رأيه ما دام هذا الرأى لا يمر فى منافعه ولا فى شهواته ولا فى أطماعه كالذين نراهم من علماء الدنيا، أما والله لأضربنه بسيفى هذا فما يموت رأيه وهو حى.

ثم ركب النائب فى عسكره وجاء إلى دار الشيخ واستل سيفه وطرق الباب فخرج ابنه عبد اللطيف ورأى ما رأى فانقلب إلى أبيه وقال له انج بنفسك، إنه الموت، وإنه السيف وإنه وإنه.

فما اكترث الشيخ لذلك ولا جزع ولا تغير بل قال له يا ولدى: أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله.

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت فليس فيه الإنسانى بل الإلهى، ونظر إلى نائب السلطنة وفى يده السيف فانطلقت أشعة عينيه فى أعصاب هذه اليد فيبست ووقع السيف منها.

وتناوله بروح قوية فاضطرب الرجل وتزلزل وكأنما تكسر من أعصابه فهو يرعد ولا يستقر ولا يهدأ

وأخذ النائب يبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له، ثم قال يا سيدى ما تصنع بنا؟ قال الشيخ أنادى عليكم وأبيعكم.

- وفيما تصرف ثمننا؟

- فى مصالح المسلمين

- ومن يقبضه؟

- أنا

وكأن الشرع هو الذى يقول (أنا) فتم للشيخ ما أراد ونادى على الأمراء واحداً واحداً واشتط فى ثمنهم لا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ وكان كل أمير قد أعد من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه

ودمغ الظلم والنفاق والتكبر والاستطالة على الناس بهذه الكلمة التى أعلنها الشرع: **أمراء للبيع .. أمراء للبيع ...!!**

الفصل الثالث

التعريف بالعز بن عبد السلام

لم يخل عصر من عصور الإسلام من العلماء الذين يأخذون بيد الأمة فى ظلام الليل البهيم، وعند اشتداد الخطب واضطراب الأمور، يقومون بواجبهم المقدس فى أداء الأمانة ونشر العلم، وتقويم الاعوجاج، ومواجهة الظلم، وتصويب الخطأ، وقام العلماء الأفذاذ بهذه السنة الحميدة، استشعاراً للمسئولية وأداء للأمانة فهم طليعة الأمة ولسان حالها، وروادها...

ففى تاريخنا الإسلامى الزاهر نماذج رائعة من العلماء الذين أدوا رسالتهم على أكمل وجه، فكانوا نبراسًا يستضاء بهم في كل زمان، ونماذج يقتدى بها في وقت تُفتقد فيه القدوة الصالحة، والكلمة الجريئة، والمجابهة الصريحة في سبيل إعلاء كلمة الله...

وشيخنا العز بن عبد السلام هو من ذلك الطراز الذي يجب أن نستلهم سيرته في حياتنا المعاصرة، فقد كان هذا الرجل نموذجًا رائعًا للسياسي البارع، والعالم المستنير، والاجتماعي المخلص، المتعبد على طريقة السلف الصالح، فكان أمة في عصره أحيا الله به موات المسلمين.

تفتحت عينا العز بن عبد السلام على أحداث جسام كان يموج بها العالم الإسلامي، وعاش ثلاثًا وثمانين سنة (ت٦٦٠هـ) عاصر فيها أحداثًا سياسية مؤلمة.

فقد أدرك انتصارات صلاح الدين الأيوبى المجيدة، واسترداده بيت المقدس من أيدى الصليبيين (٥٨٣هـ)، وشاهد دولة الأيوبيين في هرمها وآخر

أيامها، وشاهد دولة المماليك البحرية في نشأتها وعزها، وشاهد بعض الحملات الصليبية علي فسلطين ومصر، وشاهد الغزوة التترية المغولية الهمجية على الخلافة العباسية في بغداد، وتدميرها للمدن الإسلامية، وشاهد هزيمة التتار في عين جالوت بفلسطين بقيادة سيف الدين قطز سلطان مصر.

شاهد شيخنا كل هذه الأحداث، فأثرت في نفسه، وراعه تفتت الدولة الأيوبية القوية -قاهرة الصليبيين- إلى دويلات عندما اقتسم أبناء صلاح الدين الدولة بعد وفاته: فدويلة في مصر، ودويلة في دمشق، ودويلة في حلب، ودويلة في حماة، وأخرى في حمص، ودويلة فيما بين النهرين. وبين حكام هذه الدويلات تعشش الأحقاد والدسائس، والصليبيون على الأيوب، والتتار يتحفزون للانقضاض على بلاد الشام ومصر.

نسبه ومولده[١]

نسبه:

هو أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن مهذب السلمى المغربي الأصل الدمشقي ثم المصري الشافعي، الملقب بسلطان العلماء، وقد اشتهر بالعز بن عبد السلام[٢].

فهو «السلمى» بضم السين، كما ورد على الورقة الأولى من تفسيره، وقد ضبط بذلك في المصادر التي ذكرته، وهو منسوب إلى بني سليم إحدى القبائل المشهورة من قبائل مضر[٣].

---

(١) العز بن عبد السلام - حياته وآثاره ومنهجه فى التفسير. د. عبد الله بن إبراهيم الوهيبى ط١ ص ٤٠ - القاهرة ١٩٧٩

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ وكتب الطبقات التى أشار إليها.

(٣) اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير جـ١ ص ٥٥٣.

وهو المغربي الأصل فلعل أحد أجداده جاء من المغرب وسكن الشام وهو الدمشقي منسوب إلى دمشق لأنه ولد بها. ثم المصري منسوب إلى مصر لأنه رحل إليها، وقضى فيها بقية حياته وتوفى ودفن بها. وهو الشافعى نسبة إلى الإمام الشافعي لأنه شافعي المذهب، وإن كان له آراء استقل بها حتى قال بعضهم: إنه بلغ رتبة الاجتهاد وسيأتي تفصيل ذلك.

واسمه عبد العزيز ولقب بعز الدين جريًا على عادة عصره الذي انتشرت فيه هذ الألقاب المنسوبة إلى الدين لسلطان الدين في نفوس الناس وعنايتهم به، ولقب بها الملوك والأمراء والعلماء، مثل: صلاح الدين يوسف، وركن الدين الظاهر بيبرس، وتاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز. الخ.

ولقبه تلميذه ابن دقيق العيد ب«سلطان العلماء» ولعل وجه ذلك أنه أنكر على السلاطين المنكرِ وقارعهم بالحجة فغلبهم، واشتهر بالعز بن عبد السلام.

ولادته وطفولته:

ولد فى دمشق سنة ٥٧٧ هـ لأسرة فقيرة وأب أجهده التعب يجوب الأسواق باحثًا عن عمل. فلم ير أمامه سوى أعمال شاقة تارة أو متعبة تارةً أخرى، فيستعين بابنه (عبد العزيز) في إصلاح الطرقات أو حمل الأمتعة أو تنظيف ما أمام المحلات التجارية.

وحين توفى والده لم يقو على القيام بهذه الأعمال وحيداً ولم يجد هذا الصبى مكانًا يأوي إليه، فذهب إلى شيخ تعرف عليه في الجامع الأموى فسمح له أن يشتغل في الجامع مساعداً الكبار في أعمال النظافة وحراسة نعال المصلين أو أهل الحلقات، وهو في غمرة بؤسه وحرمانه كانت تتناعى لأسماعه كلمات يقولها شيوخ الحلقات فتلهب نفسه وتثير خياله وتنقله إلى عالم آخر

حيث لا جوع ولا بؤس. هكذا كان العز بن عبد السلام من أجل ذلك هو بائع الملوك؟

لقاؤه بشيخه رحمهما الله

بكى العز بن عبد السلام كثيرا لحرمانه من العلم فكان يتكور على نفسه ويندب ويتوه لحرمانه العلمي، حتى رآه الشيخ الذي ألحقه بالجامع وهو الفخر بن عساكر صاحب حلقة الفقه الشافعي يبكي، فسأله عن السبب، فروى له ما حصل فطيب الشيخ خاطره ووعده أن يتعهده فقَّبل يد الشيخ وسأله متى يبدأ تعليمه، فقال له منذ الغد ويمضي العز بن عبد السلام صباحاً إلى المسجد وكله أمل وعزيمة وتفاؤل فيأخذه الشيخ إلى مكتب ملحق بالمسجد ليتعلم القراءة والكتابة والخط وحفظ القرآن وتعهد الشيخ بدفع نفقة الصبى(١).

وتمضى الأيام ويزداد صبر العز بن عبد السلام وتوقه على طلب العلم فيحفظ القرآن ويتقن القراءة والكتابة والخط الحسن، ويلتقى بشيخه ابن عساكر ليعلمه بتطوره العلمي في مجال القرآن، قراءة وكتابة وفهماً وتطبيقًافيزداد بن عساكر إعجاباً وثقة بذكائه ونجابته وحسن صبره وبشاشته رغم فقر ه المدقع.

وتمر الأيام وينهى العز بن عبد السلام حفظه للقرآن، وبذلك ينتقل من المكتب الملحق بالمسجد إلي حلقة الإمام ابن عساكر نفسها بعد أن أشترى له شيخه الكتب والثوب الصالح لحضور حلقة العلم.

ولنعرج قليلاً على شيخه ابن عساكر الشافعي: هذا الشيخ الذي كان له الفضل العظيم في بداية أمر العز بن عبد السلام العلمية فقد دعا له صغيراً

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى جـ٨ ص ٢١٢.

وتعهده بماله وبحاله وبعلمه عندما شب واخضر عوده، كان الشيخ زاهداً، ورعًا، كثير الصدقات، واسع المعرفة، شديد الحياء مرحًا، متألق الظرف، ومع ذلك كان خطيبًا لا ذعًا لا يخاف في الحق لومة لائم. فتأثر تلميذه العز بن عبد السلام بكثير من خصاله وسجاياه.

عندما انتهى يومه الأول في الحلقة عاد في زاويته المعهودة في ركن من أركان المسجد الأموى متفكرًا: إنه الآن بحاجة إلى المال من أجل دفء المسكن والثوب اللائق والطعام الطيب وشراء الدفاتر والأقلام والأوراق والمحابر، فالشيخ ابن عساكر قد كفىّ ووفىّ ويخجل أن يطلب منه المزيد كما أنه يخجل أن يطلب منه أن يفتش على عمل ليحصل على مال يساعده على متطلبات طلب العلم.

هذه الليلة كانت طويلة مليئة بالأفكار وبعد جهد جهيد، نام، وكانت تلك الليلة، رغم برودة وجفاف أفكارها باردة وجافة في مناخها، فاحتلم العز بن عبد السلام فقام ونزل في بركة فحصل له جهد جهيد من البرد، فأسقط جنابته ثم نام، فاحتلم ثانية، فعاد فاغتسل فأجهد حتى كاد أن يموت ثم نام، فاحتلم ثالثًا فقام إلى البركة بتعب شديد جداً فأغمى عليه من شدة البرد ثم سمع نداءً يقول له: (يا عبد السلام: أتريد العلم أم العمل؟ فقال بل العلم لأنه يهدى إلى العمل).

وعندما أصبح، قص لشيخه ابن عساكر ما كان من أمر تلك الليلة فقال له شيخه: «لقد بلغت مبلغ الرجال، وهذا النداء هاتف من السماء يأمرك أن تهب نفسك للعلم».

فلزم الشيخ العز بن عبد السلام شيخه وتعلم منه يومًا بعد يوم، وحفظ

متون الكتب ككتاب «التنبيه» للإمام الشيرازي. وكان يواصل ليله بالنهار في طلب العلم حتى أنه تأتى عليه ليال لا ينام فيها أبداً. وبقي على هذه الحال عشر سنوات حتى أصبح أحد أفذاذ العلماء في المذهب الشافعي.

وقد قيل أنه بلغ الاجتهاد فيه. ثم عكف على دراسة الحديث الشريف وغيره من فروع العلم. ومع ذلك لم يزدد طلبه للعلم إلا جوعًا له.

فسافر إلى بغداد سنة ٥٩٩ هـ ثم عاد بعد أن أشبع نهمه العلمى من التحصل الدراسى وقد أصبح إمامًا في الإفتاء، عالمًا متفننًا بارعًا(١).

وهكذا نرى أن العزيز بن عبد السلام لم يطلب العلم صغيراً مثل أقرانه، وإنما ابتدأ العلم في سن متأخرة، وانتظم في التزام حلقات الدرس وأكب على العلم بشغف ونهم وهمة عالية، فحصل في سنوات قليلة ما يعجز أقرانه عن تحصيله في سنوات طويلة، ورزقه الله الفهم العميق والذكاء الخارق فأعانه ذلك على إتقان الفقه والأصول، ودراسة التفسير وعلوم القرآن وتلقى الحديث وعلومه، وتحصيل اللغة والأدب والنحو والبلاغة.

شيوخه:

تلقى الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله العلم على شيوخ عصره وهم من أعلام الأئمة. فقد تعلم على يد كل من:-

١- عبد الصمد الحرستانى

٢- فخر الدين بن عساكر

٣- سيف الدين الآمدى

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى جـ٨ ص ٢١٢، وكتاب العز بن عبد السلام للوهيبى مرجع سابق ص ٥٠.

٤- القاسم بن عساكر

٥- عبد اللطيف بن شيخ الشيوخ

٦- الخشوعى

٧- حنبل الرصافى

٨- عمر بن طبرزد

٩- أبو الحسن الماوردى ولم يتتلمذ على الشيخ مباشرة لأنه مات قبل ولادة العز وقد أخذ العلم من كتب الماردى رحمهما الله[١].

تلاميذه:

تتلمذ على الإمام ابن عبد السلام تلاميذ كثيرون نبغوا في كل صفوف المعرفة فكانوا من أعلام الأئمة وشيوخ الإسلام، وقادة الفكر والرأى في عصرهم[٢] ومنهم:-

١- شيخ الإسلام ابن دقيق العيد

٢- جلال الدين الدشناوي

٣- عبد اللطيف بن العزيز بن عبد السلام

٤- شرف الدين أبو محمد بن الدمياطى

٥- شهاب الدين أبو شامه

٦- الإمام علاء الدين أبو الحسن الباجى

٧- تاج الدين الفركاح

٨- العلامة محمد هبة الله القفطى

---

(١) العز بن عبد السلام - مرجع سابق - ص ١٠١ / ١٠٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٠٧ / ١١٢.

وظائفه:

اتجه العز إلى التدريس وإلقاء الدروس في مساجد دمشق وفي بيته، وفي المدارس التي كانت تتعهدها الدولة، مثل: المدرسة الشبلية، والمدرسة الغزالية بدمشق، وكان في الشيخ حب للدعابة وميل إلى إيراد الملح والنوادر يلطف بها درسه وينشط تلاميذه الذين أعجبوا بطريقته، وبعلمه السيال وأفكاره المتدفقة وأسلوبه البارع، وسرعان ما طار صيت العز، وطبقت شهرته الآفاق، وقصده الطلبة من كل مكان، ولما هاجر إلى مصر عمل بالمدرسة الصالحية، وانصرف إلى إلقاء الدروس في المساجد، والتف الناس حوله يجدون فيه عالمًا شجاعًا ومدرسًا بارعًا.

الخطابة في الجامع الأموي

ولم يكن التدريس فقط ميدانه المحبب، وساحته التي يرمي بأفكاره فيها، ويلتقي بالصفوة من تلاميذه، يمدهم بقبس علمه، وصفاء روحه، وإخلاص نفسه، ويقدم الصورة والمثال لما ينبغي أن يكون عليه العالم القدوة من الإلتزام والانضباط - وإنما أضاف إلى ذلك مجالا أرحب بتوليه الخطابة في الجامع الأموي بدمشق سنة (٦٣٧هـ= ١٢٣٩م).

وكان خطيبًا بارعًا، يملك أفئدة السامعين بصوته المؤثر، وكلامه المتدفق، وإخلاصه العميق، ولم يكن يؤثر استخدام السجع المفرط كما كان يفعل أقرانه، ولا يدق مثلهم بالسيف الخشبي على أعواد المنابر، ولا يرتدي السواد، وإنما كان فيه سلاسة ويسر، يبتعد عن التكلف في الكلام، ويصيب بحديثه الطيب شغاف القلوب، فيعمل فيها ما لا تعمله عشرات الدروس والمواعظ الخالية من الروح، الفقيرة من العاطفة.

وشاء الله أن يخسر المسلمون في دمشق خطب الشيخ الجامعة، فلم يستمر في الخطابة سوى سنة تقريبًا، وفقد المنصب بسبب شجاعته وقرعه بالنكير على صنيع الصالح إسماعيل حاكم دمشق، بعد أن وضع يده في يد الصليبيين، وتحالف معهم ضد ابن أخيه الصالح أيوب حاكم مصر، وكان ثمن هذا الحلف أن سلم لهم صيدا وشقيف وصفد، ولم يكتف الصالح إسماعيل بتصرفه الشائن وإنما سمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح لقتال المسلمين في مصر.

ولم يكن الشيخ ليسكت عن خطأ أو يسمح بتجاوز في حق الأمة، أو تفريط في ثوابتها؛ فأفتى بحرمة بيع السلاح للفرنج بعد أن ثبت أنه يستخدم في محاربة المسلمين، ثم أعقب ذلك بخطبة مدوية في الجامع الأموى قبح فيها الخيانة وغياب النجدة والمروءة، وذم ما فعله السلطان وقطع الدعاء له بالخطبة.

وما كان من الصالح إسماعيل إلا أن أقدم على عزل الشيخ الجليل عن الخطابة والإفتاء، وأمر باعتقاله، ثم فك حبسه بعد مدة خوفًا من غضبة الناس وألزمه بيته، ومنعه من الإفتاء.

سفره إلى مصر

لقد أخزى الله تعالى جيش الملك الصالح إسماعيل وأنصاره الصليبيين ونصر الملك نجم الدين أيوب، فانتقل العز بن عبد السلام إلى مصر عام (٦٣٩هـ = ١٢٤١م) بدعوة من الملك نجم الدين أيوب واستقبله استقبالا كبيرًا في مصر وعهد إليه حميع وظائفه التي سلبها منه الناصر إسماعيل فولاه الخطابة بجامع عمرو بن العاص، وعينه قاضيًا للقضاه وأوكل إليه الأشراف

على عمارة المساجد وهنا بدأت مرحلة ثانية في تاريخ العز بن عبد السلام حافة بالمفاجآت والحوادث غير المتوقعة.

بائع الأمراء

قبل الشيخ الجليل الجليل منصب قاضي القضاه ليصلح ما كان معوجًا، ويعيد حقًا كان غائبًا، وينصف مظلومًا، ويمنع انحرافًا وبيلا، فلم يكن يسعى إلى جاه وشهرة، وفي أثناء قيامه بعمله اكتشف أن القادة الأمراء الذين يعتمد عليهم الملك الصالح أيوب لا يزالون أرقاء لم تذهب عنهم صفة العبودية، والمعروف أن الملك الصالح أكثر من شراء المماليك وأسكنهم جزيرة الروضة واعتمد عليهم في إقامة دولته وفي حروبه، وهؤلاء المماليك هم الذين قضوا على الدولة الأيوبية في مصر وأقاموا دولتهم التي عرفت بدولة المماليك.

وما دام هؤلاء الأمراء أرقاء فلا تثبت ولايتهم ونفاذ تصرفاتهم العامة والخاصة ما لم يُحرروا، فأبلغهم بذلك، ثم أوقف تصرفاتهم في البيع والشراء، والنكاح وغير ذلك مما يثبت للأحرار من أهلية التصرف، فتعطلت مصالحهم، وكان من بين هؤلاء الأمراء نائب السلطان.

وحاول هؤلاء الأمراء مساومة الشيخ فلم يفلحوا وأصر على بيعهم لصالح بيت المال، ثم يتم عتقهم ليصبحوا أحراراً تنفذ تصرفاتهم، قائلا لهم: نعقد لكم مجلسًا، ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعى.

وما كان ذلك ليرضيهم فرفضوا ورفعوا الأمر إلى السلطان الصالح أيوب، فراجع الشيخ في قراره فأبى، وتلفظ السلطان بكلمة ندت منه أغضبت الشيخ، وفهم منها أن هذا الأمر لا يعنيه ولا يتعلق بسلطته، فانسحب الشيخ

وعزل نفسه عن القضاء، فما قيمة أحكامه إذا لم تُنفذ، وردها صاحب الجاه والسلطان.

وما أن انتشر خبر ما حدث، حتى خرجت الأمة وراء الشيخ العز الذي غادر القاهرة وأدرك السلطان خطورة فعلته، فركب في طلب الشيخ واسترضاه وطيب خاطره واستمال قلبه، وطلب منه الرجوع معه، فوافق العز على أن يتم بيع الأمراء بالمناداة عليهم.

صفاته الخُلُقية:

إن صفات العز الخُلُقية كثيرة، وهي في مجملها تدل على تمتعه بأكمل الصفات، وأجمل الخصال، وأنبل المزايا، فمن صفاته.

* الورع:

لما مرض مرض الموت أرسل له الملك الظاهر بيبرس وقال له: عين مناصبك لمن تريد من أولادك، فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين بن بنت الأعز أحد تلاميذه، ففوضت إليه.

ومنها عزله لنفسه من القضاء أكثر من مرة خوفًا من حمله الثقيل، وتبعاته العظيمة.

* الزهد:

كان العز من الزهاد حقًا وصدقًا، بل كان شديد الزهد، فلم يجمع من الدنيا إلا القليل، وإذا عرضت عليه أعرض عنها، وقصصه في ذلك كثيرة، منها:

بعد أن انتهت محنته مع الملك الأشرف، أراد الملك أن يسترضيه، فقال: «والله لأجعلنه أغنى العلماء» ولكن العز لم يأبه لذلك، ولم ينتهز هذه الفرصة لمصالحه الشخصية، ولم يقبل درهمًا من الملك، بل رفض الاجتماع به لأمور شخصية.

ولما مرض الملك الأشرف مرض الموت وطلب الاجتماع به ليدعو له، ويقدم له النصيحة اعتبر العز ذلك قربة لله تعالى، وقال: نعم، إن هذه العبادة لمن أفضل العبادات، لما فيها من النفع المتعدي إن شاء الله تعالى. وذهب ودعا للسلطان لما في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام، وأمره بإزالة المنكرات، وطلب من الملك العفو والصفح عما جرى في المحنة، قائلاً: يا عز الدين، اجعلني في حل.. فقال الشيخ: أما محاللتك فإني كل ليلة أحالل الخلق، وأبيت وليس لي عند أحد مظلمة، وأرى أن يكون أجرى على الله.

وفي نهاية الجلسة أطلق له السلطان ألف دينار مصرية، فردها عليه، وقال: هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من الدنيا.

ولما استقال العز من القضاء عند فتواه ببيع الأمراء، ورفض السلطان لذلك، خرج من القاهرة، وكل أمتعته في الحياة، مع أسرته، حمل حمار واحد، مما يدل على قناعته بالقليل، وزهده في المال والمتاع.

ومن ذلك ما ذكر من عرض الظاهر بيبرس عليه أن يجعل أي أبنائه إن شاء خلفًا له في مناصبه بعد وفاته وإبائه لذلك، عندها قال له الظاهر: من أين يعيش ولدك؟ قال: من عند الله تعالى. قال: نجعل له راتبًا؟ قال: هذا إليكم.

والحقيقة أن ولد العز الشيخ عبد اللطيف كان عالمًا فقيهًا، ويصلح

للتدريس، ولكن ورع العز وزهده منعه من جعل منصب التدريس وراثة لأولاده.

قال الداوى: «وكان كل أحد يضرب به المثل في الزهد والعلم».

* الكرم والسخاء والبذل:

وهى صفة تؤكد صفة الزهد فيه رحمه الله، فقد كان باسط اليد فيما يملك، يجود بماله على قلته طمعًا في الأجر والثواب.

حكى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة رحمه الله، أن الشيخ لما كان بدمشق وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل، فأعطته زوجته مصاغًا لها، وقالت: اشتر لنا به بستانًا نصيف به، فأخذ المصاغ، وباعه، وتصدق بثمنه، فقالت: يا سيدي اشتريت لنا؟ قال: نعم، بستانًا في الجنة، إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه، فقالت له: جزاك الله خيراً.

ولما جاء أستاذ الدار الغرز خليل برسالة الملك الأشرف بدمشق للشيخ العز بعزله عن الإفتاء، قال له: يا غرز من سعادتي لزومي لبيتي، وتفرغي لعبادة ربي، والسعيد من لزم بيته، وبكى على خطيئته، واشتغل بطاعة الله تعالى، وهذا تسليك من الحق، وهدية من الله تعالى ، أجراها على يد السلطان وهو غضبان، وأنا بها فرحان، والله يا غرز لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعتها عليك، ونحن على الفتوح، خذ هذه السجادة صل عليها، فقبلها وقبلها، وودعه وانصرف إلى السلطان، وذكر له ما جرى بينه وبينه. فقال لمن حضره: «قولوا لي ما أفعل به، هذا رجل يرى العقوبة نعمة، اتركوه، بيننا وبينه الله».

قال ابن السبكي: «وحكي أنه كان مع فقره كثير الصدقات، وأنه ربما قطع من عمامته، وأعطى فقيراً يسأله إذا لم يجد معه غير عِمامته».

* **التواضع:**

على الرغم من الهيبة التي حظي بها العز والتي كان يخشاه لأجلها السلطان والأمراء، وعلى الرغم من المكانة الاجتماعية والعلمية، فقد كان الشيخ العز متواضع مع نفسه ومع ربه ومع الناس جميعًا.

ومما يذكر له في ذلك أن نائب السلطنة في مصر عندما جاءه حاملاً سيفه ليقتل العز لفتواه ببيع الأمراء المماليك قام لاستقباله، فاعترضه ابنه خشية عليه من القتل، فقال له: «يا ولدي، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله».

وكان رحمه الله يترك التكلف في لباسه، فقد قال ابن السبكي بعد أن ذكر كثرة صدقاته وأنه قد يتصدق بعمامته: «وفي هذه الحكاية ما يدل على أنه كان يلبس العمامة، وبلغني أنه كان يلبس قبع لباد، وأنه كان يحضر المواكب السلطانية به، فكأنه كان يلبس تارة هذا، وتارة هذا، على حسب ما يتفق له من غير تكلف».

وقد سبق أنه خرج من مصر وكل متاعه حمل حمار مما يدل على تواضعه في معيشته، وتركه للتكلف فيها.

* **الهيبة:**

كان العز رحمه الله في شخصيته، وكان يظهر أثر ذلك في دروسه وخطبه، وفي اجتماعه مع الناس، ومعاملته مع طلابه ومعاصريه، بل كانت

هذه الهيبة تضفي آثارها الجسمية على المتجبرين والمتكبرين والمتعالين والمتجرئين على الله والناس.

ومما يستشهد به لهذا الخلق قصته مع الأمراء الأتراك في مصر، وهم جماعة ذكر أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم فيه، وأضرم الأمر، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاحًا، وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، وسق ذكر قصتهم.

وقال الأستاذ محمود رزق عن بيبرس: «وكان يهاب سلطان العلماء في زمانه، وهو عز الدين بن عبد السلام».

ومما يذكر له في هذا الشأن أنه عندما عزل من مناصبه في دمشق وأمر أن يلزم بيته، استأجر بستانًا متطرفًا عن البساتين، وكا مخوفًا، «واتفقت له فيه أعجوبة، وهو أن جماعة من المفسدين قصدوه في ليلة مقمرة، وهو في جوسق عال، ودخلوا البستان، واحتاطوا بالجوسق، فخاف أهله خوفًا شديداً، فعند ذلك نزل إليهم، وفتح باب الجوسق، وقال: أهلاً بضيوفنا، وأجلسهم في مقعد حسن، وكان مهيبًا مقبول الصورة، فهابوه، وسخرهم الله له، وأخرجوا لهم من الجوسق ضيافة حسنة، فتناولوها، وطلبوا منه الدعاء، وعصم الله أهله وجماعته منهم بصدق نيته وكرم طويته، وانصرفوا عنه».

عقيدة الإمام بن عبد السلام

قال في كتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام:-

فصل فيما يثاب عليه من العلوم

كل العلوم شريفة، وتختلف رتب شرفها باختلاف رتب متعلقاتها، فما تعلق بالإله وأوصافه كان أشرف العلوم؛ لأن متعلقه أشرف من كل شريف.

والعلوم أقسام:

أحدها: الضروريات ولا ثواب عليها، لأنها ليست من كسب العالم بها.

الثاني: النظريات، ويثاب الإنسان عليها لقدرته على تحصيلها بالتسبب إليها.

الثالث: علوم يمنحها الأنبياء والأولياء بأن يخلقها الله فيهم من غير ضرورة ولا نظر وهي ضربان:

أحدهما: أشرف من الآخر وهو العلم بما يتعلق بالذات والصفات وله شرف عظيم ولا ثواب عليه في نفسه، ولا على الأحوال الناشئة عنه، فإن حدث عنها أمر مكتسب كان الثواب عليه دونها وكفى به شرفا في نفسه وهي كالمحامد التي يلتمسها الرسول عليه السلام بين يدي شفاعته لأمته، فكم من شرف عظيم لا ثواب عليه لأنه خير من الثواب فإن النظر إلى الله أشرف من كل شريف وأفضل من كل نعيم روحاني أو جثماني، وقد جعل زيادة على الأجور، لأنه أعظم من أن يقابل به عمل من الأعمال أو حال من الأحوال، وكذلك رضوان الله من أفضل ما أعطيته ولا ثواب عليه.

الضرب الثاني: علوم إلهامية، يكشف بها عما في القلوب، فيرى أحدهم بعينيه من الغائبات ما لم تجر العادة بسماع مثله.

وكذلك شمه ومسه ولمسه وكذلك يدرك بقلبه علوما متعلقة بالأكوان،

وقــد رأى إبراهيم ملكوت السـمــوات والأرض، ومنهـم من يرى الملائكة والشـيــاطين والبـلاد النائيـة، بل ينظر إلى مـا تحت الثـرى، ومنهـم من يرى السموات وأفلاكها وكواكبها وشمسها وقمرها على ما هي عليه، ومنهم من يرى اللوح المحفوظ ويقرأ ما فيه.

وكذلك يسمع أحدهم صرير الأقلام وأصوات الملائكة والجان، ويفهم أحدهم منطق الطير، فسبحان من أعزهم وأدناهم، وأذل آخرين وأقصاهم، ومن يهن الله فما له من مكرم، إن الله يفعل ما يشاء(١).

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام جـ١ ص ١٤٠.

من نفائس أقوال الإمام العز بن عبد السلام

كيف تُعرف مصالح الدين والدنيا ومفاسدها؟

قال العز بن عبد السلام:

فيما تعرف به مصالح الدارين ومفاسدهما:

أما الدارين وأسبابها ومفاسدها: فلا تعرف إلا بالشرع، فإن خفي منها شيء طلب من أدلة الشرع وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس المعتبر والاستدلال الصحيح.

وأما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها: فمعرفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات، فإن خفى شيء من ذلك طلب من أدلته.

ومن أراد أن يعرف المتناسبات والمصالح والمفاسد راجحهما ومرجوحهما فليعرض ذلك على عقله بتقدير أن الشرع لم يرد به ثم يبني عليه الأحكام فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده ولم يقفهم علي مصلحته أو مفسدته، وبذلك تعرف حسن الأعمال وقبحها[١].

---

(١) المرجع السابق.

رأيه في الرقص والتصفيق

قال الإمام العز بن عبد السلام(١):

وأما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث لا يفعلها إلا راعن أو متصنع كذاب وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه، وقد قال عليه السلام: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»(٢)، ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدي بهم يفعل شيئا من ذلك، وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله عز وجل ولقد مالوا فيما قالوا وكذبوا فيما ادعوا من جهة أنهم عند سماع المطربات وجدوا لذتين أثنين:

أحداهما: لذة المعارف والأحوال المتعلقة بذي الجلال.

والثانية: لذة الأصوات والنغمات والكلمات الموزونات الموجبات للذات النفس التي ليست من الدين ولا متعلقة بأمور الدين، فلما عظمت عندهم اللذتان غلطوا فظنوا أن مجموع اللذة إنما حصل بالمعارف والأحوال، وليس كذلك بل الأغلب عليهم حصول لذات النفوس التي ليست من الدين بشيء. وقد حرم بعض العلماء التصفيق لقوله ﷺ: «إنما التصفيق للنساء»(٣)، و«لعن ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء»(٤)، ومن هاب الإله وأدرك شيئًا من تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق ولا يصدر التصفيق والرقص إلا من غبي جاهل، ولا

---

(١) قواعد الأحكام – مرجع سابق – جـ ٢ ص ٢٢١ / ٢٢٢.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٥٠٨ ومسلم ٢٥٣٥.

(٣) رواه البخاري ٦٢٥ ومسلم ٤٢١. (٤) رواه البخاري ٥٥٤٦.

يصدران من عاقل فاضل، ويدل على جهالة فاعلهما أن الشريعة لم ترد بهما في كتاب ولا سنة،، ولم يفعل ذلك أحد الأنبياء ولا معتبر من أتباع الأنبياء، وإنما يفعل ذلك الجهلة السفهاء الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء، وقد قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[١] وقد مضى السلف وأفاضل الخلف ولم يلابسوا شيئا من ذلك، ومن فعل ذلك أو اعتقد أنه غرض من أغراض نفسه وليس بقربة إلى ربه، فإن كان ممن يقتدي به ويعتقد أنه ما فعل ذلك إلا لكونه قربة فبئس ما صنع لإيهامه أن هذا من الطاعات، وإنما هو من أقبح الرعونات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

وكذلك رأيت في «فتاوي الفقيه أبي محمد» -أى: العز بن عبد السلام- فتوى طويلة فيها أشياء حسنة قد سئل بها عن مسائل متعددة قال فيها: ولا يجوز شغل المساجد بالغناء والرقص ومخالطة المردان ويعزّر فاعله تعزيراً بليغًا رادعًا[٢].

قال الذهبى:

قال قطب الدين كان مع شدته فيه حسن محاضرة بالنوادر والأشعار يحضر السماع ويرقص[٣].

وفى شذرات الذهب[٤]:

وقال الذهبى: كان يحضر السماع ويرقص!!

(١) سورة النحل آية ٨٩ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ٤ ص ١٥ .

(٣) العبر فى خبر من عنبر جـ٥ ص ٢٦٠ (٤) جـ٣ ص ٣٠٢ .

وما نقل عن الإسنوي -في كتب الشافعية- من تعليل الرقص عند العز بن عبد السلام لا قيمة له لأنه مبني على لا شيء.

تصوفه:

يعد الحدث الأهم في حياة العز بن عبد السلام هو تصوفه، أي انتقاله من العالم قاضي القضاة الفقيه إلى العالم قاضي القضاة الفقيه الصوفي العارف المحقق. وتصوفه هذا حقيقة حتميه وإن شكك بها كثير من الناس، عوامهم وعلماءهم، وهو ناجم عن إيمان وإخلاص وصدق، فكل صادق لا بد أن يسلك طريق التصوف، طال به الزمان أم قصر، كما حدث مع سيدنا الحارث المحاسبي، والإمام الغزالي، وغيرهم.

تذكر الروايات أن العز بن عبد السلام كان ينكر طريق التصوف شأن غيره من المنكرين، حتى عرف الشيخ السهروردي وهو شيخ من مشايخ الطريقة النقشبندية وتتلمذ عليه، ويعتقد أن فترة سلوكه هذه كانت فترة تهذيب ومجاهدة وصقل للنفس ثم سمع بقدوم أبي الحسن الشاذلي رحمه الله من تونس فظنه أحد المشعوذين أو الدجالين. وكان ابن عبد السلام قاضي للقضاة. فجمع شرطة وأخذ القيد وعزم علي القبض على الشاذلي. وعندما قصد بيته صادفه شخص فقال له: «إني عازم على القبض عليه»، فقال له ذلك الشخص: «أسمعته حتى تتبين صدقه من كذبه»، فقال العز: «لا، صدقت»، فجعل القيد في خصره، وهكذا تبدل موقف الإنكار إلى موقف الحياد.

فتوجه إلى منزل الشاذلي ودخل عليه وأبقى عسسه خارجًا. وشرع يسأل عن أسئلة دقيقة في علم التوحيد فيشير الشاذلي رحمه الله إلى أصغر تلامذته ليجيبوه، وهكذا حتى سأل العز عن مسألة فتكلم الشاذلي بالمعارف

والأذواق فأذعن ابن عبد السلام وجلس بين يدي الشاذلي متأدبًا. وقال له: «والله لقد تبت يا سيدي»، وأنكب على يديه يقبلها. فقال له أبو الحسن: «أين القيد، والله إلا قيدتني» فعندها قام ابن عبد السلام متعجبًا. وقال الشاذلي قوله المشهور: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون».

وهكذا أصبح ابن عبد السلام يتردد على مجلس الشاذلي، متخفيًا بزي أعرابى مرة، وبزي مزارع مرة أخرى، حتى حضر مجلسًا له، وكان العز بن عبد السلام ملثماً: فتكلم الشاذلي مرة بشرح الرسالة القشيرية، فعندها قام العز بن عبد السلام وكشف لثامه وأصبح يجري في صحن الجامع قائلا: «اسمعوا هذا الكلام الغريب العجيب القريب العهد من الله». ومن ذلك الوقت سلك ابن عبد السلام الطريق على يد الشاذلي، وحضر مجالسه، سواءً في المساجد أو في خيمة الحرب التي عقدت إبان الغزو الصليبي في واقعة المنصورة. حتى أصبح إماما في طريق التصوف، ويشهد بذلك كتابه: «زيد خلاصة التصوف» الذى بين أيدينا الذي نقد فيه منكري التصوف وفسر إشارات أهل الطريق وألف أحلى العبارات وأرق الأشعار التى تدل على علو مقامه في طريق التصوف.

وقد مدح طريق القوم قائلاً: «مما يدلك على شرف طريق القوم وأنهم قعدوا على قواعد الشريعة وغيرهم قعد على الرسوم مما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق ولا يقع شيء من ذلك على يد فقيه ولو بلغ في العلم ما بلغ حتى يسلك طريقهم».

ثناء العلماء عليه:

أجمع علماء الأمة، قديمًا وحديثًا بفضله وعلمه ومواقفه فقد قال:

١- **أبو الحسن الشاذلي**: قيل لي: «ما على وجه الأرض مجلس في

الفقه أبهى من مجلس عز الدين بن عبد السلام».

٢- الحافظ المنذري: «كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه»

له مؤلفات عديدة منها

فى مجال العقيدة:

١- رسائل في علم التوحيد.

٢- ملحة الأعتقاد (أو العقائد).

٣- الفرق بين الإسلام والإيمان.

٤- نبذة مفيدة في الرد على القائل بخلق القرآن.

٥- وصية الشيخ عز الدين.

٦- بيان أحوال الناس يوم القيامة.

فى علوم القرآن:

١- تفسير القرآن العظيم.

٢- مختصر تفسير النكت والعيون للماوردي.

٣- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الإعجاز.

٤- الفوائد في مشكل القرآن.

٥- أمالى العز بن عبد السلام.

فى الفقه وأصوله:

١- الغاية في اختصار نهاية المطلب في دارية المذهب لإمام الحرمين الجوينى.

٢- الجمع بين الحاوي والنهاية.

٣- أحكام الجهاد وفضله.

٤- مقاصد الصلاة.

٥- مقاصد الصوم.

٦- مناسك الحج.

٧- رسالة في ذم صلاة الرغائب.

٨- الفتاوي الموصلية.

٩- الفتاوي المصرية.

١٠- شرح منتهى السول والأمل في علمى الأصول والجدل لأبى عمرو بن الحاجب المالكي..

١١- القواعد الصغرى.

١٢- الإمام في بيان أدلة الأحكام.

١٣- القواعد الكبرى.

في الحديث الشريف:

١- شرح حديث «لا ضرر ولا ضرار».

٢- مختصر صحيح مسلم.

٣- شرح حديث «أم زرع».

في السيرة النبوية :

١- قصبة وفاة الرسول ﷺ .

٢- ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام .

٣- بداية السول في تفضيل الرسول ﷺ .

علوم أخرى :

١- فوائد البلوى والمحق .

٢- نهاية الرغبة في آداب الصحبة .

٣- مجلس ذم الحشيشة .

٤- ثلاثة وثلاثون شعراً في مدح الكعبة .

٥- ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام .

في التصوف :

١- شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأفعال .

٢- رسالة في القطب والأبدال الأربعين .

٣- مقاصد الرعاية لحقوق الله . (وهو مختصر لكتاب الرعاية للحارث المحاسبى) .

٤- مسائل الطريقة في علم الحقيقة .

٥- زبد خلاصة التصوف المسمى بحل الرموز وهو الكتاب الذى بين أيدينا .

٦- الفتن والبلايا والمحن .

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله فتح بمفاتيح الغيوب أقفال القلوب. ورفع حجب السرائر. وجلا أبصار البصائر فظهر ما كان محجوب. وجلا عرائس الوجود فى مرآة الشهود. فمن فهم المقصود بلغ المطلوب: وفق من شاء من عباده فجاهد فى الله حق جهاده. بما سبق له فى المكتوب. ثم هداه بعد ما بين له هداه. ثم رقاه بعد ما نقاه من العيوب. ثم والاه بعد ما تولاه ثم أولاه نعما لا يحصرها حيسوب. ثم شغله بالمنعم عن النعم ثم أقامه على قدم الخدمة فى الخدم ثم خلع عليه خلعة من خلع القدم.

والواهب الكريم لا يسترد الموهوب. فأول قدم رفعه من دار ملكه ووضعه فى دار ملكوته ثم أشرفه على عرصات جبروته فاختطفته هنالك خطفات هيبته. فهو مختطف مجذوب. ثم أعرته يد اللطائف الربانية عن الكثائف الجثمانية فهو هنالك منتهب مسلوب. فلما أخذه من نفسه وسلبه عن حسه وانتهبه من بين أبناء جنسه. رفعه إليه ثم رده عليه وقربه لديه فهو حينئذ مراد ومخطوب. ثم روق له من كرم كرمه شرابًا مستخرجًا من راووق يحبهم ويحبونه فسكر قبل أن يتناول المشروب ثم تجلى له فى ساعة سعوده. فغلب بشهوده عن وجوده. فما أفاق إلا بمذكر ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1].

فلما صح بذكره وصحى من سكره صالح لسان عشقه المطروب، وقلت فى ذلك.

---

(١) [سورة الرعد: آية ٢٨].

أنا في المحبة خاطب مخطوب   وهو المحب إياى والمحبوب
لولا قديم الحب ما أخلصت في   حبي فكنت الطالب المطلوب
أبداً يصافيني الهوى فكأنما   أنا في الحقيقة صاحب مصحوب

أحمده حمد من إليه يؤوب وعن ذنبه يتوب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أدخرها لتفريج الكروب. في يوم لا شروق لشمسه ولا غروب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أختاره من بين الأنام خير محبوب، وجعل حبه على خليقته مفترضًا غير مندوب. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة إلى يوم وعده غير مكذوب.

(وبعد) فإنه لما كانت المعاني جواهر. والألفاظ أصدافها، والحكم معادن والقلوب أهدافها. وجب على من فتحت اليقظة عين بصيرته. وجلت الموعظة مرآه سريرته. أن يتبع من أجل الكلام معانيه. ومن الحكم ما يبلغ به أمانيه. ولا يقنع من المعدن بدون كنزه. ولا من اللفظ إلا بفهم رمزه، وإني رأيت كثيراً من الألفاظ قد ارتبك في أغماضها كثير من أهل الاعتراض، فمنهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه وقد عجز كثير عن حلها لعز محلها، فمنها ما جاء في الآيات والأخبار المشهورة، ومنها ما جاء في الآثار المأثورة، فمثال ما جاء في صريح الخبر الصحيح. كقوله سبحانه وتعالى: «ما وسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن»، ومنها: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصراً»، وفي حديث: وفؤاداً. وفي حديث ولساناً ويداً فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش، ومنها في الحديث: «أنا جليس من ذكرني»، وفي الحديث: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعًا ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا ومن أتاني يمشي أتيته

هرولة »، ومنها ما جاء بلفظ العندية : « تجدني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي » . وبلفظ المعية : « وهو معكم أين ما كنتم » وبلفظ الاتحاد، كقوله لعبده في القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني . واستطعمتك فلم تطعمني » الحديث ومن ذلك ما أخبر به الرسول ﷺ عن نفسه : « إني لست كاحدكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني » .

وأما ما جاء في الأثر إما فتحًا وإما شطحًا كقول القائل .(أنا من أهوى ومن أهوى أنا) . وكقول الآخر (أنا الله) . وكقول الآخر (ما في الجبة إلا الله) . وكقول الآخر (سبحاني) وكقول الآخر (ما أعظم شأني) .

فهذا كله وما شاكله وماثله القول فيه واحد لأنها وان اختلفت ثمارها وتنوعت أزهارها لكنها تسقى بماء واحد تشير إلى محو الاثنين وثبوت الواحد، فقوم تلقوه بالتسليم وقابلوه بالقلب السليم وحملوا ذلك على معنى قوله ﷺ : « إن منْ العلم كهيئة المخزون لا يعمله إلا أهل العلم بالله »، فإذا تكلموا به أنكره أهل العزة بالله .

وقد بلغني عن قضيب البان بالموصل وكان عظيم الشأن وكان قد برز للناس بالوله والاختلال وترك الصلاة لا يأوى إلا المزابل ولا يتوقى النجاسة، والناس متحيرون في حالة مختلفون في أمره فقوم يقولون زنديق، وقوم يقولون، صديق فبينما يوم من الأيام قاضي المدينة مارًا إذ رآه على مزبلة وقد يال على ساقية، فقال القاضي في نفسه تبًا لمن جعلك صديقًا وما أنت إلا زنديق، فما استتم الخاطر حتى قال قضيب البان يا قاضي قد احطت بجميع علم الله؟ قال له : لا والله، قال : فأنا من ذلك العلم الذي لا تعلمه، وما عليك إن كنت صديقًا أو زنديقًا[١] .

---

(١) هذه وأمثالها روايات يتداولها الناس ولا يسندها دليل.

فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال وقد أشكل على الافهام تعليلها، وعزب عن الأوهام تأويلها احببت أن أشرح منه ما انشرح له صدرى وسنح به فكرى وبلغ اليه قدرى، وذكرت فيه من العبارة ما ليس فيه استعارة، وقدمت ذكر هذه الأحاديث وما معها من الألفاظ المأثورة عن الرجال وجعلتها أسًا للكلام وبينة لثبوت الأحكام، لتكون منوالاً أنسج عليها ما كان حالا لا محالا وسميتها «حل الرموز ومفاتيح الكنوز»، وإنما سميتها بهذه التسمية لأنها تشير إلى المقام الأشرف المعروف منه كنت كنزًا لا أعرف، ثم قدمت لحل هذه الإشكال مقدمة يزول بها الأشكال إذ النتائج لا تظهر إلا بالمقدمات. والنهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات. فمن صدق فى بدايته أطلعه الله على حقائق نهايته. كما أن من بنى أساسًا ثبت عليه بالكتاب والسنة والقياس ،قال الله تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ** ﴾[1] الآية.

وأقول وبالله التوفيق أعلم أن العلم مقدمة نتيجتها العمل والعمل مقدمة نتيجتها الحال فالعلم والعمل كسبى والحال وهبى قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾[2] فالمجاهدات بالعلم والعمل والهداية مواهب الله تعالى فى الأحوال وهذا معنى قوله ﷺ: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم. مالم يعلم» فالذى أورثه الله لعبده لم يكن من كسبه بل بفضل الله وبرحمته وبذلك من الله على نبيه ﷺ، فقال: « **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ * وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** »[3] ثم اعلم أن من مراتب السلوك إلى منازل الملوك ثلاث الإسلام والإيمان والإحسان.

فالإسلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين.

---

(١)[سورة التوبة: آية ١٠٩]. (٢) [سورة العنكبوت: آية ٦٩]. (٣) [سورة النساء: آية ١١٣].

ثم الإيمان أول مدارج القلب لخاصة المؤمنين.

ثم الإحسان أول معارج الروح لخاصة المقربين.

وقد فسر ذلك رسول الله ﷺ فى الحديث المشهور وهو ما رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخديه، وقال يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن إستطعت إليه سبيلا. قال له صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرنى عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. قال: صدقت، فاخبرني عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك الحديث». ثم بين فى آخر الحديث قال يا عمر: أتدرى من السائل قال الله ورسوله علم قال ذلك جبريل أتاكم يعلمكم معالم دينكم[1].

فأول ما يفتح من الكنوز ما فى هذا الحديث من السر المرموز والمعنى الملغوز وهو أن جبريل هو الفاتح لهذا الباب والسائل عن هذه الأسباب والمتأدب بهذه الآداب، ففى ذلة سؤاله إجلالا لعزة رسول الله ﷺ إذ هو بين يديه كالمتعلم بعد ما كان معلمًا، ولا عجب إذ أتاه جبريل يتأدب بآدابه، ويقف وقوف السائل على بابه، وكيف لا يكون وقد خلفه عند سدرة المنتهى وانتهى إلى حضرة ليس لها منتهى، وجلس حيث لا أين على بساط قاب قوسين، وتعلم من معلم فأوحى إلى عبده ما أوحى ثم انصرف من مكتب

(١) [رواه مسلم].

أدبنى ربى فأحسن تأديبى، فتلقاه سائق الروح قائماً على باب لو تقدمت قدر أنملة لاحترقت، فناداه بذلة السؤال يا محمد كنت أظن أنى عرفت الله قبلك وأنى أقاس فى الرتبة مثلك وقد عرفت قدرك عند ربى من قدرى وإلى الله عذرى، فأنت فى الحقيقة متقدم، وها أنا بين يديك متعلم، أخبرنى ما الإسلام أخبرنى ما الإيمان أخبرنى ما الإحسان، فجبريل فى الحقيقة عريف هذه الأمة فى مكتب التعليم من نبى الرحمة.

فصــــل

[علم الإنسان ما لم يعلم]

وقد لمع من هذه النكتة لمعة باهية وأنا أدلك ما هي.

إعلم أنه لما أدخل الله عباده مكتب التعليم، فتقدم آدم من زمن تقادم، وطالع لوح الوجود فقرأ ﴿ **علم آدم الأسماء كلها** ﴾، وطالع محمد ﷺ لوح الشهود فقيل له يا محمد مالك ولأسماء الخلائق وأنت صفوة الخالق، ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾، فلما كتب وأدب وهذب، قيل يا محمد: قد تعرفت الينا بالأسماء والصفات فتعرف إلينا بالذات ﴿ **اقرأ وربك الأكرم** ﴾ فلما غاب عن الإسم وجد المسمى، ولما أعرض عن الفعل قرأ الحرف المعمى، فلما عرفه الله تعالى بحقه رفعه على خلقه، ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾، فجاءهم بمثال ﴿ **أن الدين عند الله الإسلام** ﴾، فقال أطفال التعليم بلسان الاستسلام والإحنسان، قيام الروح بمشاهدة الملك العلام، ألا تراه يقول (**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**)، فتكون قائماً بوظائف العبودية مع شهودك إياه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك فتكون قائماً بوظائف العبودية مع شهوده إياك فانت فى الأول مراد، وفى الثانى مريد، لأنه حين أرادك أشهدك إياه، وحين أردته كان الإرادة منك له فلذلك حجبك، فلو كانت الإرادة منه لك لما حجبك، فإنه لا توصل إليه إلا به قال داود عليه السلام يارب اين أطلبك؟ قال: يا داود أنت من أول قدم فارقتني، يارب وكيف؟ قال: لأنك جعلت الطلب منك إلى، ولو جعلته منى إليك لوجدتني قال أبو يزيد تهت فى بدايتى فى ثلاثة أشياء كنت أظن أني أحببته وطلبته وذكرته، فلما كشف لى رأيت ذكره لى سابق ذكرى له، وطلبه لى سباق طلبى له وحبه لى سابق حبى له، فالكل به وبفضله ثم فى الحديث معنى خفى يظهر لمن قلبه ذكى فى قوله: فإن لم تكن تراه فإنه يراك فقوله: فإن لم تكن هذا كلام تام، وشرطه تام ثم قوله تراه جزاء هذا الشرط،

إن لم تكن أنت فى البين ولا بقى لك أثر فى العين فإنك تراه .

اعلم أن هذه المراتب لا تصل إلى واحدة منها حتى تحكم ما قبلها، ولكل واحدة منها طريق معلوم وسلوك مقسوم وأصل ذلك كله وملاكه التوبة لأن التوبة تجب ما قبلها كما أن الإسلام يجب مال قبله.

وصحة التوبة مبنية على ثلاثة شروط :

الأول : الندم على ما فات من المخالفات .

الثاني : القيام فى الحال على أحسن الحالات .

الثالث : العزم على أن لا يعود إلى قبيح العادات .

فإن أخل بشيء من هذه الثلاث فهو تائب نكاث وأما قوله ﷺ الندم التوبة فهو إنما نص معظم أركان التوبة، لأن الندم وحده كاف فى التوبة، كما قال فى الحج، الحج عرفة فما أراد به أنه لا ركن فى الحج إلا عرفة، وإنما ذكر معظم أركان الحج وهو الوقوف بعرفة، ولا شك أن الندم معظم أركان التوبة لأن الندم أمر متعلق بالقلب والجوارح فإذا ندم القلب رجع عن المعاصي فرجعت برجوعه الجوارح، وهو معنى قوله ﷺ : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلتح صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد ألا وهى القلب » .

ثم اعلم أن التوبة على ثلاثة أقسام : أولها التوبة وآخرها الأوبة وأوسطها الإنابة، فمن تاب خوف العقوبة فهو صاحب توبة ومن تاب رجاء مثوبة فهو صاحب إنابة من تاب حفظًا وقيامًا بالعبودية لا رغبة في الثواب ولا رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة .

فالتوبة صفة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾(١) وفى هذه الآية إشارة خاصة وبشارة عامة أما البشارة فهو عم العصاة والطائعين والموافقين والمخالفين بلفظ الإيمان وسماهم مؤمنين لئلا تتمزق قلوبهم من خوف القطيعة.

وأما الإشارة الخالصة ففيها أمر بالتوبة فأمرهم مع طاعتهم بالتوبة لئلا يعجبوا بطاعتهم ويصير عجبهم حجبهم، فأمر هم بالتوبة فتساوى فى ذلك الطائع والعاصى، ولذلك قال ﷺ: «توبوا فإنى أتوب إلى الله فى اليوم والليلة مائة مرة» وأما الإنابة فهى صفة الأولياء، قال الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾(٢) وأما الآوبة فصفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾(٣).

ثم اعلم أن توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من غفلة القلوب، وتوبة خواص الخواص من كل شىء سوى المحبوب، فشتان بين التائب من الزلات. وبين التائب من الغفلات وبين تائب من رؤية الحسنات.

وهذا معنى قولهم حسنات الأبرار سيئات المقربين لأن من عبد الله استحقاقًا لربوبيته وقيامًا بعبوديته لا رغبة فى جنته ولا خوفًا من ناره فعنده رؤية الثواب وملاحظة العقاب نقص، لأنه خاف ما سوى الله وترجى غير مولاه وإنما خوفه هيبة له ورجاؤه ثقة به.

وقد جاء فى الإسرائيليات أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود إن

---

(١) [سورة النور: آية ٣١].

(٢) [سورة ق: آية ٣٣].

(٣) [سورة ص: آية ٣٠].

أحب أحبائى إلىّ من عبدنى لغير نوال، بل ليعطى الربوبية حقها، ومن أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار، يا داود وإنما خلقت النار سياطًا لأسوء عبادى أسوقهم إلى خدمتى، وخلقت الجنة لمتوسلى عبادى أوصلهم إلى جوارى وقربى. يا داود لو لم أخلق جنة ولا نارًا لم أكن أهلا أطاع وأعبد محبة لى.

وقد قال ﷺ: «لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل أو كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل». ويظهر من هذا المعنى سر قوله ﷺ: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»، فهذا فى لفظه إشكال، وتفسير ذلك وتحقيقه أنه أثنى عليه بقوله نعم العبد فلو كان عصى ما استحق المدح، وقد علق وجود المعصية على وجود الخوف، وقد ثبيت أنه ما عصى فعلمنا أنه ما خاف.

فتركه للمعصية لم يكن خوفًا من عقوبته بل رعاية لمحبته، ووجه آخر فى تفسيره وهو أن الهاء فى يعصه ضمير عائد على صهيب، فمعناه لو لم يخف الله لم يعص نفسه، واعلم أن السالك إذا صدق فى توبته لزمته المجاهدة واستعمال جوارحه فى الطاعات، فإذا داوم العبد المجاهدة أثمرت له حركات ظاهرة وبركات باطنة، فإن حركات الظاهر توجب بركات الباطن، لأن الله سبحانه جعل بين الأجساد والأرواح رابطة ربانية وعلاقة روحانية، فلكل منهما ارتباط بصاحبه وتعلق به يتأثر بتأثر صاحبه، فإذا عملت الجوارح بالطاعة أثر ذلك على قلبه فيخشع قلبه وتصفو روحه وتزكو نفسه وإذا أخلص القلب بالطاعة أثر ذلك على جوارحه فاستعملها فى طاعته، ألا تراه ﷺ يقول لذلك الرجل الذى رآه يعبث فى صلاته: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» وقال: «من أخلص لله أربعين صباحًا تفجرت ينابيع

الحكمة من قلبه على لسانه» فلزوم المجاهدة يوصل إلى حضرة المشاهدة، ألا تراه سبحانه وتعالى يقول لنبيه وحبيبه: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾(١). فإن كان مقصود الوجود لا يصل إلى المقام المحمود إلا بالركوع والسجود فكيف يطمع بالوصول من ليس له محصول.

قال أبو عثمان المغربى رحمة الله عليه: كل من ظن أنه يفتح عليه بشىء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها بغير لزوم المجاهدة فهو فى غرور وغلط.

وقال أبو يزيد البسطامي رحمة الله عليه: مكثت أثنى عشرة سنة حداد نفسى، وخمس سنين كنت أجلى مرآة نفسى وسنة أنظر فيما بينهما، فإذا فى وسطى زناد فعملت فى قطعه خمس سنين انظر كيف أقطعه، فقطعته فكشف لى، فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات.

ومعنى هذا الكلام والله أعلم أنه عمل فى مجاهدة نفسه وإزالة أزغالها وما حشيت به من العجب والكبر والحرص والحقد والحسد وما شابه ذلك مما هو من مألوفات النفس، فعمل فى إزالة ذلك بأن أدخل نفسه إلى كبر التخويف، ثم طرقها بمطارق الأمر والنهى حتى أجهده ذلك وظن أنها قد نظفت، ثم نظر فى مرآة اخلاص قلبه فإذا بقايا من الشرك الخفى وهو الربا والنظر إلى الأعمال وملاحظة الثواب والعقاب والتشوق إلى المقامات والكرامات والمواهب وهذا شرك فى الإخلاص عند أهل الاختصاص وهو الزناد الذي أشار إليه فعمل فى قطعه يعنى قطع نفسه وفطمها عن العلائق

---

(١) [سورة الإسراء: آية ٧٩].

والعوائق والإعراض عن الخلائق حتى أمات من نفسه ما كان حيًا وأحيا من قلبه ما كان ميتا حتى ثبت قدمه فى شهود النّدم وأنزل ما سواه منزلة العدم فعند ذلك كبر على الخلق وانصرف إلى الحق.

ومعنى قوله كبرت على الخلق أربع تكبيرات لأن الميت يكبر عليه أربعًا لأن حجاب الخلق عن الحق أربع، النفس والهوى والشيطان والدنيا فأمانت نفسه وهوا،ه ورفض شيطانه ودنياه، فلذلك كبر على كل واحدة ممن فنى عنه تكبيرة لأنه هو الأكبر وما سواه أذل وأصغر.

فصـــل

[منازل القربات]

ثم أعلم أنك لا تصل إلى منازل القربات حتى تقطع ست عقبات :

(**العقبة الأولى**) فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية .

(**العقبة الثانية**) فطم النفس عن المألوفات العادية .

(**العقبة الثالثة**) فطم القلب عن الرعونات البشرية .

(**العقبة الرابعة**) فطم السر عن المكدورات الطبيعية .

(**العقبة الخامسة**) فطم الروح عن التجارات الحسية .

(**العقبة السادسة**) فطم العقل عن الخيالات الوهمية .

فتشرف من العقبة الأولى على ينابيع الحكم القلبية، وتطلع من العقبة الثانية على أسرار العلوم اللدنية، ويلوح لك فى العقبة الثالثة أعلام المناجاة الملكوتية، ويلمع لك فى العقبة الرابعة أنوار أعلام المنازلات القريبة، ويطلع لك فى العقبة الخامسة أقمار المشاهدات الحية، وتهبط من العقبة السادسة على رياض الحضرة القدسية، فهنالك تغيب بما تشاهد من اللطائف الأنسية عن الكشائف الحسية، فإذا أرادك لخصوصية الاسطفائية سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ وبالذوق شوقًا وبالقرب طلبًا وبالسكون قلقًا، وفى ذلك قيل شعر:

يزيد ظمــأه كلما ازداد شـــربه   من المحب فاعجب منه ظمآن بالشرب

واعجـــب من ذا قـــربه لحبيبــه   ويزداد بالقرب اشتياقًا إلى القرب

فلا الشرب يروى لا ولا القرب يشتفى   بـه القلـــب بل يـــزداد كربًا على كرب

فإذا تمكن منك السكر أدهشك، فإذا أدهشك حيرك، فأنت ههنا مريد فإذا أدام لك تحيرك أخذك منك وسلبك عنك فتبقى ثم مسلوبًا مجذوبًا فأنت حينئذ مراد، إذ أنت معه بلا أنت وعنده بلا أين مشاهده بلا كيف، فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك قام بصفاته عن صفاتك، وببقائه عن فنائك، وخلع عليك خلعة فبى يسمع وبى يبصر فيكون هو متوليك ومواليك فإن نطقت فبأذكاره وإن نظرت فبأنواره وإن تحركت بأقداره، وإن بطشت فباقتداره فهنالك ذهبت الإثنينية واستحالت البينية، فإذا رسخ قدمك وتمكن سرك وحار سكرك قلت هو، وإن غلب وجدك وتجاوز بك سكرك عن حد الثبوت قلت أنا، فأنت فى الأول متمكن، وفى الثاني متلون، ومن ههنا أشكل على الأفهام حل رمز هذا الكلام، فقائل يقول زنديق فيقتل. وقائل يقول صديق فيحمل. وقائل يقول مغلوب عليه فيهمل. فهو من حيث تحقيق حاله محقق فى علمه والذى حكم فى قتله مصيب فى حكمه إذ الشريعة لها حدود من تعداها أقيمت عليه الحدود، قال الله تعالى ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا**﴾(١) والحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود، وما مثال ذلك إلا مثال ملك أوقف أحد عبيده على بابه وأمره بلزوم مقامه، وأن لا يتجاوز حده المحدود، وأمره أن من تعداه وأراد الدخول إلى الملك والمتجاوز عن ذلك الحد أن يقتله أو يذبه ويمعنه الدخول ثم اختص عبداً آخر وأذن له أن يدخل عليه ويتجاوز إلى حرمه وأن يطلع على سره بغير إذنه ولا يشاور من هو واقف على الباب، فلما أراد الدخول شعر ذلك المأمور له بالمنع فلما دخل بغير إذنه

---

(١) [سورة البقرة: آية ٢٢٩].

وتجاوز الحد قتله، فالقاتل في الحقيقة مجتهد مصيب بامضاء أمر الملك والوقوف عند حدوده والمقتول شهيد مرحوم مقرب غير متعد في قتله بما خصه به الملك فأذن له في الدخول عليه بغير إذن والاطلاع على سره ومشاهدة معانيه، فهذا شأن هذه الشريعة في إقامة الحدود ومحافظة العهود، وهذا شأن أهل الحقيقة في خصوصية الشهود ومشاهدة المعبود، فالشريعة إقامة بوظائف العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية فالشريعة مجاهدة، والحقيقة مشاهدة، ولا تباين بينهما إذ هما متلازمان إذ الطريق إلى الله سبحانه لها ظاهر وباطن، فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة، فبطون الحقيقة في الشريعة كبطون الزبد في لبنه أو الكنز في معدنه، فيذوب مخض اللبن أو صفر المعدن، لا يظفر من اللبن بزبده ولا يفوز من المعدن، بلوغ قصده فالمراد من الحقيقة، والشريعة إقامة العبودية على الوجه المراد منك، وكل شريعة لا حقيقة لها فهي عاطلة، وكل حقيقة لا شريعة معها فهي باطلة ومصداق ذلك قوله ﷺ لحارثة «يا حارثة كيف أصبحت، قال: أصبحت مؤمنًا حقًا، فقال: لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال: يا رسول الله عزبت نفسي عن الدنيا فاسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني انظر إلى عرش ربي بارزاً وإلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعاوون، فقال ﷺ «عرفت فالزم» فالشريعة حق والحقيقة حقيقتها، فالشريعة القيام بالأوامر، والحقيقة مشاهدة الأمر، والحقيقة والشريعة يجمعهما كلمتان وهو قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾(1) فإياك نعبد شريعة، وإياك نسعتين حقيقة، ثم أعلم أن العلم علمان: علم الظاهر للشريعة وعلم الباطن للحقيقة قال رسول الله ﷺ العلم علمان علم باللسان وعلم بالقلب، فأما علم اللسان فهو حجة الله للعباد، وأما علم القلب فهو

---

(١) [سورةالفاتحة آية ٥].

العلم الأعلى الذى لا يخشى الله العباد، إلا به فعلم القلب هو العلم اللدنى الذي لم يسطر فى الطروس ولم يحفظ فى الدروس، وإنما هو تلقين من الله بغير واسطة ملك ولا سفارة رسول، كما أن الخضر عليه السلام علم بالعلم اللدنى ما لم يعلمه موسى بالعلم الوحيي فقتل تلك النفس الزكية بغير نفس هذا على ظاهر الشرع عدوان محض، لكن ظهر تحقيق فعله بعلم آخر لدنى لم ينقل من الكتب والأوراق وإنما جاء وحيا من الملك الخلاق، فوجب على موسى عليه السلام انكار ذلك واستقباحه قياما بالحدود وعملا بالشريعة إذ هو مشرع ومقتداً به، فلو سكت عن الإنكار، لاستحق الإنكار ولذلك تأدب الخضر معه بقوله ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾(١) وهذا غاية الأدب من الخضر لأنه علم أنه بدا منه مالا تقره الشريعة فقال انك لن تسطيع معى صبرا على ما يخالف الشريعة ثم لما أعلمه الخضر بما لم يدخل فى علم الشريعة علم موسى عليه السلام أن الشريعة جسد والحقيقة روحها، وإذا لم يكن للشريعة سفينة غرق ملاحها.

فإن قال قائل فيكف تصح دعوى من أدعى الأنانية وكيف يأوّل وعلى أى شيء يحمل وما نظير ذلك فى الخارج وما مثاله فى المحسوس لتقبله العقول وتسلمه النفوس؟ فاقول: إعلم أن المحبة لطيفة روحانية تستولى بلطيف روحانيتها على كثيف جثمانية المحب فيذهب اللطيف الكثيف وتتلاشى الجثمانية بالروحانية لقوة سلطان المحبة وذوب المحب تحت قهرها فإن لنارها احتكامًا ولسلطانها أصطلاما، فإذا أذنت بحرارتها تدمر كل شيء بأمر ربها فمحال أن يثبت مع المحبة سواها أو يثوى مثواها، وما مثال فناء المحب فى بقاء المحبوب إلا مثال النار إذا استولت بلطافة روحانيتها على كثافة جثمانية الخشب والحطب وتبقى روحانية اللهب، فالذى تشاهده من الدخان الصاعد

(١) [سورة الكهف: آية ٦٧].

من الخشب فى بداية استيلاء النار عليه فإذا اتسحكمت النار ذهبت ذاتية الخشب وانقطع الدخان فكذلك ما يتصاعد من بخارات حسك وخيالات نفسك فى بدايتك فإذا دام استيلاء نار المحبة ذهبت ذاتية صفاتك وقامت بصفاتها عن صفاتك، وبوجودها عن وجودك، ومثال كمون المحبة فى ذاتية المحبوب وسلب ذاتية المحب عن صفاتها ككمون النار فى ذاتية الماء الجار، فأنت تظنه فى الصورة ماء يغرق، وهو في الحقيقة نار تحرق، فلو أدنيت منه شيئًا لأحرقه، فإن قلت: إن المحرق هو النار فأين الماء؟ وإن قلت: إن المغرق هو الماء فأين النار؟ ولقد أشرت إلى ذلك فقلت:

نار المحبة أحرقت أحشائى ... ومدامعى تنهل كالأنوائى
فأنا الحريق بأضلعي وأنا الـ ... ـغريق بأدمعي يا منقذ الغرقاء
ومن العجائب أن نار تحرقى ... تزداد وقدًا عند فرط بكائى
فالنار والماء القراح تآلفا ... هذا لعمرى أعجب الأشياء

فإن قلت فكيف ينبغى للقديم أن يحل فى الحادث؟ وكيف يجوز لمخلوق أن يتصف بصفات الخالق؟ وما وجه قوله كنت له سمعًا وبصرًا، فبى يسمع وبى يبصر؟(١).

فأقول ألا ترى أن النار كيف كست صفاتها للماء بواسطة الحجاب حتى عاد الماء فى الصور ماء وفى المعنى نارًا يفعل فعل النار فى إحراقها من غير أن يتحيز النار فى ذات الماء ولا اتصلت به ولا مازجته ولا جانسته فهى متصلة بالذات منفصلة بالذات، وإنما بواسطة قرب الماء من النار كسته صفتها النارية فصار محرقًا، فكذلك الحق سبحانه وتعالى بواسطة قرب عبده منه واقباله عليه كساء الله سبحانه وتعالى صفة النارية من غير تحيز ولا اتصال ولا انفصال ويضرب الله الأمثال.

---

(١) سبق تخريجه.

فصـــل

[أوصاف المحب]

وأعلم أن المحبوب أبداً يسلب بلطافة خاصية محبته ويجذب أجزاءها إليه بقوة سلطانه عليه كما أن المغناطيس تعلقت به أجزاء الحديد وانجذب إليه بذاته فهو يدور معه حيث ما دار وينجذب إليه حيث ما سار، فمن أوصاف المحب الميل الدائم بالقلب الهائم ومخالفة اللائم.

وقلت في معنى ذلك.

أيهـا العـاشق معنى حسننا مهرنا غال لمن يخطبنا
جسد مضنى وروح في العنا وجفون لا تذوق الوسنا
وفؤاد ليس فيه غيرنا فإذا ما شئت أد الثمنا
فافن إن شئت فناء سرمداً فالفنا يدني إلى ذلك الفنا
واخلع النعلين إن جئت إلى ذلك الحي ففيه قدسنا
وعن الكونين كن منخلعًا وأزل ما بيننا من بيتنا
وإذا ما قيل من تهوى فقل أنا من أهوى ومن أهوى أنا(١)

ثم اعلم أن من أراد كشف هذا السر الخفي والكشف الجلي فليتدبر قوله ﷺ مخبراً عن ربه عز وجل: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصراً وفؤاداً**»(٢) ففهمنا من ذلك أن علاقة وصلة المحبة لما اتصلت بها لطافة وصلة المحبوبية واستمسك بعروة (حتى

---

(١) هذه شطحات يرفضها كبار أئمة الصوفية. (٢) سبق تخريجه.

أحبه) قوى سلطان المحبوبية على سلطان المحبة فأفناه عن ذاته ونفاه عن صفاته ثم أقام ببقائه عن فنائه وخيم بصفاته عن فنائه، تبدلت الصفات بالصفات وقام الوجود بالوجود فجاءت خلع الجرد على يد (فبى يسمع وبى يبصر) فمحت هنالك الآنية وذهبت الآثنينية واستحال تقدير البين فى البين وتعذر أن يصير الواحد اثنين، وذلك لاستحالة رؤية بقاء المحب مع المحبوب، وهذا المعنى مودع فى سر هذه الآبيات:

ومخطوبة الحسن محجوبة ... ولا تألفن سوى إلفها
إذا ما تجلت على عاشق ... وأهدت إليه شذا عرفها
تغيب الصفات وتفنى الذوات ... بما أبرز الحسن من لطفها
فإن رام عاشقها نظرة ... ولم يستطع لعلى وصفها
أعارته طرفا رآها به ... فكان البصير لها طرفها

وإلى هذا المعنى أشار من غلب عليه سكره فقال فى شطحاته: انا الله[1] وذلك لأنه متكلم لا بلسانه وناظر لا بعينه سامع لا بأذنه. بل هو متكلم بلسان الحق سامع بسمعه ناظر ببصره ﴿**فبى يسمع وبى يبصر**﴾.

وما مثال ذلك إلا مثال رجل بيده سراج فى ليلة مظلمة وهو يهتدى بنور ذلك السراج ليصل به إلى منزله إلا أنه بين خوف هبوب ريح تطفئه أو تنقص مادة دهنه أو تفرغ فتيلته فيبقى فى ظلمة طريقه قبل أن يصل إلى الحقيقة، فبينما هو بين خوف القطيعة ورجاء الوصل إذ طلعت عليه الشمس

---

(١) مثل هذه الشطحات رفضها أكابر الصوفية، كما رفضها واستنكرها أهل العلم من فقهاء وعلماء ومحدثين. لما فيها من غموض والتأويلات قد تبتعد بها عن المعنى الصحيح.

فنظر فإذا هو فى المنزل فأمن هنالك طرفه أن يضل وقدمه أن يزل ونوره أن يقل، فكذلك طلوع أنوار المعارف على ظلمة ليل العارف تذهب بظلمة الأشباح وتغلب ضياء سراج الأرواح، قد استولى عليها الاستغراق فى أشعة ذلك الأشراق فالعارف بنور العرفان يسير وبحكمه يشير، وفى فضاء أشعته يطير، ﴿ **فبى يسمع وبى يبصر** ﴾.

ثم اعلم أنه ظهر من سر هذا المعنى سر قوله تعالى:[1] « ما وسعنى سمواتى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى المؤمن » فذاك الوسع فى الحقيقة لمن تدبر أو تفكر أو تبصر، إنما الله وسع نفسه وما وسعه غيره لأنه وسع كل شيء، وذلك أنه ثبت أن العبد لما انخلع عن صفاته الفانية خلع عليه السيد صفاته الباقية، وهو قوله كنت له سمعًا وبصراً وفؤاداً فذلك الفؤاد الذي خلعه عليه هو الفؤاد الذى وسعه لأن الفؤاد والقلب إسمان لشيء واحد فثبت أن ما وسعه في الحقيقة إلا هو، ليس هو القلب الصنوبرى الشكل لأن ذلك مضغة من لحم ودم محدث الوجود، وواجد الوجود سبحانه وتعالى منزه عن الحلول فى الحادث المحدود.

ومعنى آخر فى سر هذا الحديث وهو أن تعلم أن هذا الوسع يستحيل أن يكون وسعًا بالذات لأن الله تعالى لا يوصف بذلك وإنما هو وسع بالصفات وصفات الله تعالى على قسمين: نفى وإثبات فبنفى عنه ما يستحيل عليه كالشبيه والمثيل والعديل والشريك والضد والند والحد والقد والعد والعجز والضعف والنقص وما شابه ذلك ويثبت له ما يجب له كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وما شابه ذلك، فإذا علمت بقلبك ما

---

(١) يعنى فى الحديث القدسي.

يستحيل عليه وما يجب له فكأنك قد أحطت بصفاته فتكون قد وسعته بالصفات لا بالذات فهذا معنى ووسعنى قلب عبدى المؤمن.

والحق سبحانه قد جمع معانى آياته وصفاته وجواهر حكمه وكلماته فى صدفة كلمة الإخلاص ثم أطلع الخواص على ما فيها من الخواص، وهى كلمة أولها نفى وآخرها إثبات، دخل أولها على القلب فحلا ثم تمكن آخرها من القلب فجلا، فنسخت ثم رسخت، وسلبت ثم أوجبت، ومحت ثم اثبتت، ونقضت ثم عقدت، وأفنت ثم أبقت، فأولها يشير إلى الفناء وآخرها يشير إلى البقاء، فإذا قلت لا إله فقد فنى كل شىء وإذا قلت إلا الله فلم يبقى شىء سوى الله قال الله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[1] .

ثم اعلم أن جوهرة هذه الصدفة وكعبة حرمها وحجر كعبتها ومصلى قبلتها وروضة حضرتها وزهرة روضتها وثمرة زهرتها وبيت قصيدتها ومعنى صورتها الذى يشير سويداء القلب إليه وتنعكف السرائر بصفائها عليه هو اسم الجلالة من قولك إلا الله، لأنه هو الاسم الأعظم للجناب المعظم[2]، فهو المقصود من كلمة الإخلاص وإنما جاءت لفظة لا إله دالة عليه ومشيرة إليه كالحاجب بين يديه ألا ترى أنه أتى بهذا الأسم آخر الكلمة مشيراً أن لاشىء بعده ،ولفظه لا إله تعنى ولا شىء قبله، فلله الأمر من قبل ومن بعد، ثم ابتدأ هذا الاسم الشريف بحرف الألف لما فيه من الدلالة عليه والإشارة إليه فإن معانى الربوبية مندمجة مندرجة فى هذا الأسم مودعة فيه، فلذلك ابتدأ

---

(١) [سورة القصص: آية ٨٨].

(٢) راجع كتاب اسم الله الأعظم لابن عطاء الله السكندرى بتحقيقنا ونشر مكتبة النافذة ٢٠٠٦، وكتاب أسرار التنزيل وأنوار التأويل (فى وحدانية الله) للرازى بتحقيقنا ففيهما يثبت المصنفان أن أسم الله الأعظم هو لفظ الجلالة : الله.

بظهوره لعباده يستدلون به عليه ويصلون إليه، إذ لا سبيل إلى ذاته فدلهم بأسمائه وصفاته فجعل حرف الألف أول إسم الله، وأول حروف المعجم، وأول ما خاطب الله تعالى به عباده فى أول الوجود بقوله سبحانه ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾(١)، فلما ابتدأ بالحروف أشار إلى أوليته وجعله ممتداً طويلا إشارة إلى سرمديته وديموميته، وجعله قائما معتدلا إشارة إلى قيوميته وعدالته، وجعله صامتا لا تجويف له إشارة إلى صمديته، وجعله منفرداً إشارة إلى فردانيته وأحديته، وجعله تتصل به الحروف ولا يتصل هو بالحروف إشارة إلى افتقار خلقه إليه، وأن الله لغنى عن العالمين، فالطائف حول كعبة هذا الأسم أعنى اسم الله تعالى أول ما يكشف فى طوافه عن سر هذا الحرف ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ** ﴾(٢)، ثم يسعى بين صفا اللام الأول ومروة اللام الثانية فإذا تم سعيه وقطع مندرجة الألف واللام وقف على عرفات الهوية فكأن قائلا يقول عند الوصول إلى الهاء ها هو المطلوب الذى تعزه القلوب وتحجبه الغيوب إلى ذلك أشرت فقلت:

يا ساقى القوم من شذاه   الكل لما سقيت تاهوا

غابوا وبالسكر فيك طابوا   وصرحوا بالهوى وفاهوا

يا عاذلى خلنى وشربى   فلست تدرى الشراب ما هو

قم فاجتلى صفوة المعانى   فى صفوة الكاس إذ جلاه

واسمع إذا غنت المثاني   تقول يا هو لبيك يا هو

---

(١) [سورة الأعراف: آية ١٧٢].

(٢) [سورة الحج: آية ٢٨].

مـا قلت للقلب أين حبى   إلا وقال الضمير ها هو

مـا شرب الكاس واحتساهُ   إلا محب قد اصطفاه

ثم اعلم أن هو فى خاتمة هذا الاسم الشريف وفيه معنى لطيف وهو أن قولك هو حرفان هاء وواو، فالهاء حرف يخرج من آخر مخارج الحروف لأنه يخرج من داخل الحلق فهو آخر الحروف مخرجا والواو حرف يخرج من بين الشفتين وهو أول مخارج الحروف فهو أول الحروف مخرجًا فأشار إلى ذاته بهذين الحرفين، فقال: (هو) مشيراً أنه هو الأول وهو الآخر لا أول قبله ولا آخر بعده تنزه عن الحلول والنزول لا كما يخطر للعقول، فإذا سمعت «ووسعنى قلب عبدى المؤمن» فاعلم أن القلب غيب والرب غيب فاطلع الغيب على الغيب فكان نزولا لا حلولا.

واعلم أن لطيفة ذلك وإشاراته أن القلب خلق كامل الوصف وله وجهان ظاهر وباطن فظاهره ترابي أرضى طبيعى مظلم جثماني وباطنه سمائى علوى نورى روحانى، فكثافته ظاهره وظلمته لمباشرة القوى الطبيعية البشرية، ولطافة باطنه لمواجهة الملكوتيات العلوية الربانية الروحانية، واستغراقه فعلى قدر مواجهته لها ومقابلته إياها، انطمست عليه أشعة أنوارها وانجلت لاسراره بأسرارها فشاهدها بالأنوار التى أفاضت عليه، وادركها بالأسرار التى أبدت إليه وهذا معنى العكس والمقابلة فهو يشهد جمالية محبوبه فى مرآة قلبه من غير حصر ولا تحيز ولا حلول ولا انفصال ولا اتصال، فهو فى المثال كمرآة لها وجهان ظاهرها كثيف مظلم وباطنها لطيف مضىء، فلو قابلها من الكائنات ما قابلها من صغير أو كبير رأيته متمثلا فيها مع صغر جرمها وكبر المرئى فيها ولو كان جملاً أو جبلاً رأيته بكل أجزائه فيها، من غير حلول فيها ولا اتصال

بها ولا تحيز فى شىء منها، فكذلك الحق سبحانه وتعالى إذا تجلى على قلب عبده المؤمن يشاهده بعين يقينه، ويجتليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز ولا انفصال ولا اتصال.

وأوضح من هذا المقال ما أشرحه فى هذه الأبيات.

ولما تجلى من أحب تكرمًا ... وأشهدنى ذاك الجمال المعظما

تعرف لى حتى تيقنت أننى ... أراه بعينى جهرة لا توهما

وفى كل حال أجتليه ولم يزل ... على طور قلبى حيث كنت مكلما

وما هو فى وصلى بمتصل ولا ... بمنفصل عنى وحاشاه منهما

وما قدر مثلى أن يحيط بقدره ... وأين الثرى من رفعة البدر انما

أشاهده فى صفو سرى وأجتلى ... جمالا تعالى عزه أن يقسما

كما أن بدر التم ينظر وجهه ... بصفو غدير وهو فى أفق السما

واعلم أن هذه الخصوصية لابن آدم دون الملك، وإنما كان كذلك لما ذكرنا أن الآدمى مخلوق من العالمين الكاملين من اللطيف والكثيف، فنزل القلب منزلة المرآة فى لطيفها وكثيفها، فلذلك يطبع فيها ما يقابلها من المرآت ولا كذلك الملك فإنه مخلوق من لطيف فقط فهو كله نور يشف ظاهره وباطنه فهو كالزجاجة الشفافة نورها خارق ولا يتمثل فيها ما يقابلها لعدم الكثيف الذى يعكس ما يقابلها اليها، فهذا سر العكس والمقابلة.

وأما المثال الثانى فى كثافة ظاهر القلب وظلمته ولطافة باطنه وصفائه كمثال صدفة حشوها درة فالصدفة لها وجهان: وجه مما يلى الدرة ووجه خارج عن سمة الدرة، والوجه الظاهر وهو الخارج عن سمت الدرة، مظلم

أسود كسائر الأحجار، أما الوجه الذى يلى جمال الدرة فاكتسب من صفائها وضيائها حتى صار كأنه هى وكأنه هو، ولا علة لذلك إلا مواجهته إياها ومقابلته لها واحتجابه عن غير وجهها، فكذلك القلب له وجهان: وجه مما يلى الجثمانية البشرية ووجه مما يلى عيان جمال الله عز وجل، فبالوجه المواجهة الجثمانية كسائر القلوب الحيوانية، وبالوجه المواجهة عيان جمال الله عز وجل وقد اكتسب منه نوراً غرق صاحبه فيه واستغرقه فى مشاهدته حتى ظن أنه هو حتى قال صاحبه أنا هو(1).

ولا عجب لقلب قد ملئ بحب الله تعالى لاستغراقه فى مشاهدته فهو غائب فى حضرته حاضر فى غيبته، غاب فى ذكره بمذكوره، ودهش فى نظره بمنظوره.

فلا عجب أن يقول أنا هو فإن هذه دودة البقل لمجاورتها لبقلتها وانقطاعها إليها واستبدادها منها حتى اتصفت بصفتها ولبست حلتها حتى لا يفرق بينها وبين بقلتها لغنائها عن الصفات الدودية وبقيت بالصفات البقلية، فما بالك بقلب قطعت مادته مما سوى الله تعالى، وجعل غذاؤه ذكر الله سبحانه وشرابه حب الله تعالى وحركته بالله سبحانه وقيامه لله تعالى، وفنى وجوده ببقاء الله تعالى عز وجل فاستحال تقدير البين فى البين لأنه لم يبق له أثر ولا عين وهذا كله مبنى على أصلين مخلصين من قوله تعالى **(يحبهم ويحبونه)**.

---

(١) يحاول المؤلف رحمه الله ورضى عنه أن يضع تخريجات وتأويلات لطيفة لبعض الشطحات، ولكن كما سبق أن قلنا إن هذه الشطحات فيها غموض ويرفضها كبار أئمة التصوف لأنها توهم بمخالفتها لكمال التوحيد.

فصـــل

[محبة الله لعبيده]

إعلم أن الله عز وجل يوصف بمحبة عبده والعبد يوصف بمحبوبه، فمحبة الحق سبحانه لعبده خصوص من عموم ارادته، فالإرادة جامعة لجميع المردات من الحب والبغض والرضا والسخط والقرب والبعد وكل ذلك متعلق بالإرادة، وإرادته سبحانه واحدة وإنما الاختلاف فى متعلقاتها، فإذا تعلقت إرادته بالتوبة على عبده تسمى رحمة، وإذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضباً، وإذا تعلقت بالزلفى والكرامة والتخصيص تسمى محبة، فالفرق بين الرحمة والمحبة أن الرحمة إرادة البر واللطف والأنعام، والمحبة إرادة القربة والزلفى والكرامة.

ومن الناس من قال أن محبة الله لعبده هى مدحه والثناء عليه فتكون محبته له قديمة لأن مدحه قوله وقوله كلامه وكلامه قديم، ومنهم من قال إنها من صفات فعله لأن إحسا نه إليه وانعامه عليه وهذا محدث فتكون محبته له محدثة، ومنهم من وقف وقال هذه من صفات الإخبار لأن الله تعالى أخبر بذلك فلا يعلم ما هى.

وأما محبة العبد لربه سبحانه وتعالى فهى فى حالة لطيفة يعجز عن تفسيرها اللسان، ويقصر عن تحقيقها الإنسان، تحمله الحالة على ترك الحظوظ وإيثار الحقوق فيترك مراداته المرادات محبوبة إذ ليس للمحب إرادة مع إرادة محبوبه، فيترك مراداته وقد أطلق القوم القول فى المحبة بألفاظ مختلفة ومعان متفاوته فتكلم كل منهم بحسب ذوقه، ونطق على مقدار شوقه.

وكذا اختلفوا فى تسميتها واشتقاقها من حيث اللغة فقال قوم الحب

اسم لصفاء المودة لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان، وقيل الحب ما يعلو الماء عند المطر الشديد. فعلى هذه المحبة عليان القلب وفورانه عند العطش والاهتياج إلى لقاء المحبوب، ويقال اشتقاق الحب من اللزوم والثبات، يقال أحب البعير إذا برك لا يقوم فكان المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر المحبوب، وقيل هو مأخوذ من الحب الذى فيه الماء لأنه يمسك ما فيه فلا يسع غير ما امتلأ به.

وأما أقاويل المشايخ فى المحبة فكما ذكرنا آنفا كل تكلم بحسب ما ذاق فقبل المحبة محو المحب لصفاته وإثبات المحبوب بذاته، وقيل مواطأة القلب لمردات الرب وسئل الجنيد رحمة الله عليه عن المحبة فقال: دخول صفاء المحبوب على البدل من صفاء المحب، وقال الشبلى: سميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سرى المحبوب، وقال أيضًا: المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه أحد مثلك وقال عطاء وقد سئل عن المحبة فقال: أغصان تغرس فتثمر فى ا لقلب على قدر العقول وقال النصرا باذى محبة توجب حقن الدماء ومحبة توجب سفك الدماء، وقال الحارث المحاسبى: المحبة ميلك إلى الشىء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك له سرًا وجهرًا ثم علمك بتقصيرك فى حبه، وقال السرى السقطى: لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر يا أنا وقيل المحبة نار تحرق القلب فلم تدع فيه شيئًا سوى المحبوب، وقيل المحبة نار حطبها أكباد المحبين، وقيل المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، وقيل المحبة أن تنطبق جميع إرادات المحب على جميع مرادات المحبوب فلا يبقى له معه إرادة، وقيل للشبلى ما بال المحبة مقترنة بالمحن فقال لئلا يدعيها كل سفلة، وتذاكر قوم المحبة عند ذى النون فقال: كنفوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها: ثم أنشأ يقول:

الخـــوف أولى بالمســـــمى   إذ نـــاله ذل الحـــزن

والحب يجل بالتــــقى   وبالنقى من الدرن

وقال أبو بكر الكناني: جرت مسألة بمكة في المحبة فتكلم فيها المشايخ فكان الجنيد أصغرهم سنا فقالوا هات ما عندك يا عراقي: فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال عبد ذاهب، عن نفسه متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه حرق قلبه بأنوار هويته، وصفا شرابه من كأس وده، وكشف له الحق عن أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وان سمع فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا ما على هذا من مزيد جبرك الله يا تاج العارفين.

وقيل المحبة أولها يحبهم وآخرها يحبونه وبينهما منهج تذوب وأرواح تطير إلى المحبوب، واعلم أن من لم يسبق له يحبهم لم يصح له يحبونه، فسابقة يحبهم محصلة اللاحقة يحبونه، ولاحقة يحبونه نتيجة مقدمة يحبهم، فسابقة يحبهم لا أول لها، ولاحقة يحبونه لا آخر لها، فمن ثبت قدمه عند شرب كأس يحبهم قال: هو، ومن تجاوز به سكره عن حد الثبوت حتى تناول كأسه بكف يحبونه قال: أنا، فالشارب بكأس يحبهم متمكن والشارب بكاس يحبونه متلون، فالناطق بالأنانية متكلم من وادى المحو بلسان الإثبات، والناطق بالهوية متكلم من وادي الفناء بلسان البقاء، وكلاهما ناطق صادق والحقيقة موافق، لأن من قال أنا ما أراد بالأنانية نفسه لأنه مأخوذ من نفسه مجذوب عن حسه فأخذه وسالبه وجاذبه هو المتكلم على لسانه.

ومثال ذلك قصة أبي يزيد رحمة الله عليه حين قال: سبحاني فانكروا عليه، فقال حق سبح نفسه على لسان عبده، فإن الحق إذا أحب عبداً أبدى عليه باديًا منه فغيبه عنه، ويكون البادى هو الناطق على لسانه، ثم من علامة

المحب التردى برداء المحبوب كما حكى عن بعض المتحابين أنهما ركبا فى البحر فسقط أحدهما فى البحر فألقى الآخر نفسه، عليه فنزل الغواصون فأخرجوهما سالمين فقال الأول لصاحبه: أما أنا فسقطت فانت لم رميت نفسك فى البحر؟ فقال له: أنا غبت بك عنى فتوهمت أنك أنا.

وسئل المجنون أتحب ليلى؟ فقال: لا، فقيل: كيف فقال: لأن المحبة ذريعة إلى الوصلة وقد سقطت الوصلة بينى وبين ليلى، فأنا ليلى وليلى أنا، وهذا كله معنى قوله: «كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا» ومعنى «جعت فلم تطعمنى وظمئت فلم تسقينى» وأما الناطق بالهوية فإنه متمكن فى سكره متحكم فى وجده محفوظ وقنه محروس عليه سره، فهو مأخوذ من نفسه، مردود على قلبه، فنى عن نفسه وفنيت نفسه فلم يبق له فى البين وبين ولا له أثر ولا عين وعلم أن ليس هو إلا هو فقال: هو.

فصل

[حب العبد لله]

ثم اعلم أنه لاح لى من هذه اللمعة لائحة وشممت من عبيقها أطيب رائحة، وهو أنا إذا قلنا: إن محبة العبد لربه إنما هى نتيجة محبة العبد لربه إذا لو لم تكن كذلك لما كانت هذه، ثم إن العبد لا يثبت له قسم فى المحبة حتى يفنى العبد عن عبوديته، ولم يبق للعبد فى العبد أثر ولا له منه علم ولا خبر، فعلمنا أن المحب فى الحقيقة هو المحبوب، والمحبوب هو المحب، فالحق سبحانه وتعالى محب محبوب وخاطب مخطوب ومراد ومريد.

ثم لطيفة أخرى وهى أنه إذا أحبك إنما أحب نفسه، لأنك قدرته وصنعته وحكمته، فإذا أحبك أحب صنعته، كالصانع إذا أتقن صنعته وأحكمها وأعجبته أحبها فما أحب إلا ما عملت يده واستنبطته حكمته، فما كان منك كسبًا وفعلاً كان منه خلقًا وتقديراً، وأنت فى الحقيقة مسخر لقدرته، مستعمل بمشيئته، ليس لك من الأمر شىء فإذا أرادك لقربه أخذك منك وسلبك عنك وعراك عن صفاتك الفانية وخلع عليك صفاته الباقية «فبى يسمع وبى يبصر» ثم أقامك مقام نفسه وأقام نفسه مقامك «مرضت فلم تعدنى» كما فعل بحبيبه ﷺ لما خلع عن قدمىَ مراده نعلى الكونين خلع عليه خلعة ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾[1] وذلك بعد ارتحاله عن الوطنين الروح والجسد وانخلاعه عن الأصلين العلم والعمل وانتزاعه عن الوصفين السعادة والشقاوة واعراضه عن الحالتين السابقة واللاحقة وذهابه عن الاشارتين وهى لى ولك وأنا وأنت ومعى ومعك، لأن هذه كلها كلمات مأخوذة من صفات البشرية

---

(١) [سورة النجم: آية ٩].

مشيرة إليها فارتحل عنها وسار إليه بلا واسطة، ووقف مع مشاهدة الحق متلقيا ما يرد منه من أسرار المكالمة والمشاهدة وليس له فيه أثر، فهو معه بلا هو، مشاهدة بلا كيف، محاضرة بلا أين، فلما انخلع عن الكل سلم إليه الكل فأقامه مقام نفسه لأن لطافة وصلة المحبة أسقطت ما بينهما من الوسائط لاتحاد صفة المحبة وصفاء مزاج الصفوة فقال تعالى مخبراً عن قيامه له مقام نفسه ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴾(١) وقال سبحانه ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾(٢) وقال عز وجل ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾(٣) .

وروى أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله اعذرنى فإن لى قلبًا واحداً فقال لها لا تشغلى قلبك فإنه من أحب الله أحبنى ومن أحبنى أحب الله ثم بقى من ذلك الكاس الذى شربه رسول الله ﷺ بقية شراب شربه من لم يبق له من نفسه بقية فشربوا من فضلة شربه وسكروا من نشوة سكره.

وفى ذلك قلت:

شربت حميا حبكم مذ عرفتكم ... على ظمأ منى فزاد تلهبى

فلا مورد للعالمين كموردى ... ولا مشرب للعاشقين كمشربى

فلى رتبة تعلو على كل رتبة ... ولى منصب يسمو على كل منصب

فانظر إلى لطافة وصلة المحبة الأزلية القديمة كيف يصفو مزاجها ويخفى طى اندماجها واندراجها كيف سرت فى الأسرار وجرت فى مجارى الأفكار حتى حصلت ما فى الصدور بمحصولها، وملكت ما فى القلوب بوصولها

---

(١) [سورة الفتح: آية ١٠].

(٢) [سورة النساء: آية ٨٠].

(٣) [سورة آل عمران: ٣١].

وطنبت فى عرصات الأحشاء بخيامها، ونسخت سائر الأحكام بأحكامها، فبان المحب من البين وغاب عن العين ثم قام الحبيب مقام محبة فى تقاضى الدين فقال: «مرضت فلم تعدنى وجعت فلم تطمعتنى».

ولطيف هذا المعنى يظهر فى لطيف ما أشرت إليه فى هذه الأبيات

ولقد تصافينا المحبة بيننا فأنا ومن أهوى كشىء واحد
لازلت أقرب منه حتى صار لى بصرى وسمعى حيث كنت وساعدى
فإذا رأيت فلا أرى إلا به وإذا بطشت فلا يزال مساعدى
إن شئت شاء وإن أمرت فأمره أمرى فقد بلغت منه مقاصدى
فأنا الذى أهوى ومن أهوى أنا ما شاء يصنع حاسد ومعاندى

فصل

[درء شبهة التشبيه]

ثم اعلم وفقك الله أن الله تعالى لا يوصف بشيء مما أشرنا إليه في الأحاديث ولا في غيرها بحلول ولا نزول ولا اتصال ولا انفصال ولا ملامسة ولا مجانسة، فاحذر أن يختلج في فهمك أو وهمك شيء من ذلك فتهوى في المهالك، فكل ما قدرته في بالك فالله تعالى بخلاف ذلك، وأين الحادث الفاني من القديم الباقي، وأين العبد الذليل من المولى الجليل، فإن فهمت من قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1] ومن قوله: «من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً» فهذا وأشباهه وإن خطر ببالك أو تصور في خيالك إن ذلك قرب مسافة ومشى جارحة ونزول وانتقال فأنت لا شك هالك، والله بخلاف ذلك، منزه عن السلوك وقربك منه في المسالك، وإنما معنى قربه منك وقربك منه بالخدمة وهو يتقرب إليك بالرحمة، وأنت تتقرب إليه بالسجود، وهو يتقرب بالجود، وأنت تتقرب بالطاعة، وهو يتقرب بتوفيق الاستطاعة، قال ﷺ مخبراً عن ربه «إن أفضل ما يتقرب به عبادى إلى أدام ما افترضت عليهم» فأخبر سبحانه عباده أن تقربهم إليه بالعبادة، ثم قربه منك في اليوم ما خصك به من معرفته ومحبته وطاعته وقربه منك في غد بما يحصل من مشاهدته ومخاطبته شفاها وكفاحا، ثم هو في الحقيقة أقرب إلى كل شيء، من كل شيء ليس شيء أقرب إليه من شيء، وهو أبعد عن كل شيء، من كل شيء ليس شيء أبعد عنه من شيء فهو في قربة بعيد وفي بعده قريب، وقربه من خلقه على ثلاثة أقسام الأول قرب عام وهو قرب العلم والقدرة والأرادة وهو قوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[2] الآية والثاني

(١) [سورة البقرة: آية ١٨٦]. (٢) [سورة المجادلة: آية ٧].

قرب الخاصة من المؤمنين هو قرب الرحمة والبر واللطف والثاني فى ذلك قوله تعالى ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[٢].

والثالث قرب خاصة الخاصة من المقربين وهو قرب الحفظ والكلاءة والنصر والإجابة وذلك للأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وهو قوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[٣] فالعبد له فى قربه ثلاث مراتب الأول قرب الأبدان وهو بالعمل بالأركان، الثاني قرب القلب وهو التصديق والإيمان الثالث قرب الروح بالتحقيق والإحسان، ثم الحق سبحانه أقرب إلى عين الإنسان من الإنسان ومن الآساق إلى الأجفان موجود فى كل مكان ما خلا منه مكان منزه من المكان والزمان مقدس عن التمكين فى إمكان ويكفيك ما فى هذه الأبيات من البيان

طريق الوصل سهل إن تردني ففى معناك فاطلبنى تجدنى
قريب حيث كنت وحيث تغدو وحيث تروح فاطلبنى تجدنى
ولم أك غائبًا فتظن أنى بعيد عنك فاطلبنى تجدنى
وأنى منك أقرب منك حتى كأنك فى اتحاد القرب إنى
وأنى منك فى قرب وبعد كقاب القوس فاطلبنى تجدنى
فلا تسأل من العشاق عنى ولكن يا قتيل الشوق صلنى
وإن تك قد ظمئت إلىّ شوقًا فقاطع كل من تهوى وصلنى
وصرح باسم من تهوى ودعنى من الواشين وما نقلوه عنى
وإن تلك تبتغى عنى بديلا فقاطعنى وودعنى ودعنى
ستذكرنى إذا جربت غيرى وتحمد كل أمر كان منى

---

(١) [سورة الحديد : آية ٤].

(٢) [سورة ق : آية ١٦].

فصــــل

[معاملة الله لخلقه]

ثم إعلم أن السيد البر اللطيف يلاطف عبده الضعيف فيعامله بصفة الأفضال لا بصفة الجلال فإنه لو عاملك بصفة جلاله لتقطعت نياط قلبك لفقد الوصول إليه وإنما يعاملك بصفات لطفه ويتعطف عليك من تعطفات عطفه، فكلما زدته تعظيما. زادك تكريمًا، وكلما فطم العبد نفسه عن ثدى حسه وجنسه غذاه بلبان لطفه وأنسه، وكلما قطع عن بشريته مادة مألوفة أمده بمدد معروفه، ألا ترى أن اللبلابة وهى حشيشة حمراء لا ورق لها تطلع إلى جانب الكرمة وتلتف بها فتشب معها وتنمو بنموها وتخضر بخضرتها لا تبالى، فلو قطعت تلك اللبلاية من أصلها ومنبتها لبقيت ببقاء الكرمة تنمو بنموها وتخضر بخضرتها لا تبالى بما قطعت عنه ولا بما فصلت منه، فما بالك بمن تلبلبت لبلاية قلبه بكرم كرمه، وانعطفت عليه ومالت إليه وانقطعت مادتها عما سواه فلم تعرف إلا إياه، فذكره مصحوبها، وحبه مطعومها ومشروبها.

قال ﷺ «إنى أنست كأحدكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى» فليس هذا من طعام بخبز وإدام وإنما هو طعام بر وإنعام، وفضل وإكرام ومحبة واحترام، وكان ﷺ يشغله ما يفيض عليه من الإنعام الوحى والامداد الغيبى والشهود القربى عن الطعام والشراب.

وفى ذلك قلت أبياتًا:

يا عذولى سلم إلى قيادى ثم دعنى فما عليك رشادي

حبه راحتى وروح حياتى وكذا ذكره بلاغى وزادى

وإذا ما مرضت فهو طبيبى كلمـــا عادنى بلغت مرادى
وإذا ما ضللت أو ضـل ركـب عـن حماه فوجهــه لى هادى
يا عذولى فكن عليه عذيـرى أو فقل لى ما حيلتى واعتمادى
إن تلمنى أو لا تلمـنى فإنـى حبه مذهبى وحسن اعتقادى

فكان رسول الله ﷺ تارة يؤخذ منه فيقول لست كأحدكم، وتارة ويرد عليه فيقول: إنما أنا بشر مثلكم، وتاره تستغرقه المشاهدات الربانية فيقول لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى، وتارة تختطفه الجذبات القربية فيقول ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم. ثم اعلم أن الواردات التى كانت ترد عليه، عليه الصلاة والسلام ثلاثة موارد لكل مورد منها مورد ومصدر، وهى الأرواح الثلاثة الروح الأمين وهو جبريل وروح القدس وروح الزمر فمورد الروح الأمين ظاهر القلب وهو الفؤاد وللفؤاد سمع وبصر وهو قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[1] فالروح الأمين يرد سفح القل وهو قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾[2] ومصدره من عالم سدة المنتهى إذ إليها تنتهى علوم الخلايق فيرد بمواهب الأفعال وهذا علم اليقين، وروح القدس مورده باطن القلب وهو السويداء وهو محل النفث، وإليه إشارته ﷺ بقوله إن روح القدس نفث فى روعى، والنفث ما يلقيه الله تعالى إلى عبده إلهامًا كشفيًا بمشاهدة عين اليقين، ومصدره من عالم القدرة، فيرد بحقائق الأسماء وروح الأمر مورده السر وهو باطن السويداء ومصدره من عين القدرة المطلقة الربانية والحضرة الوحدانية، فيرد بتجليات أنوار الصفات وهذه حقيقة حق اليقين قال الله

---

(١) [سورة النجم: آية ١١].

(٢) [سورة الشعراء: آية ١٩٣].

تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾[1] ومن ههنا ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾[2] .

فالروح الأمين ينطق من عالم الجبروت، فالروح الأمين إذا تجلى لصفح القلب اصطلم وغاب غيبة الهية ومن ههنا يوم زملونى زملونى وروح القدس إذا استولى على القلب غلب غيبة الحضور بمشاهدة العلويات الملكوتية ومن ههنا لست كأحدكم إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى ثم يرجع من غيبة الحضور فيثبت ما شاهده من الملكوت فى عالم الملك وهو معنى قوله تعالى ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ ومن ههنا إشارة أن ليغان على قلبى ليس ذلك غير حجاب ولا غفلة فمن ظن ذلك بنبيه فقد أخطأ فى حقه وأساء ظنه به، وإنما كان ﷺ تستغرقه أنوار التجليات فيغيب بذلك الحضور ثم يسأل الله تعالى أن يستر عليه حاله فيطلب المغفرة وهى الستر لأنها مأخوذة من المغفر فكأنه سأل أن يستر حاله عليه غيرة منه عليه لأن الخواص لو دام لهم التجلى وما يكاشفهم به لتلاشوا عند ظهور سلطان الحقيقة، فالستر لهم هنالك رحمه وأما الستر للعوام فعقوبة لأنه حجاب لهم وغطاء على عمى بصائرهم فهم مستترون عنه بغيره والخواص مستورون به عما سواه.

وأما روح الأمر إذا استولى أخذه منه وغيبة عنه حتى ينظر الحقائق الربانية فى دار الفردانية ومن ههنا «لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى» فروح

---

(١) [سورة الشورى : آية ٥٢] .

(٢) [سورة النجم : آية ١٠] .

(٣) [سورة النحل : آية ١٠٢] .

القدس متلق من روح الأمر والروح الأمين متلق من روح القدس وهو سر قوله تعالى ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾[1] ولم لم متلقيًا من غير جبريل لما كان يسابق جبريل فى تلاوته فكم بين يا محمد أقرأ وهو يقول يا صاح لست بقارئ ثم يرجع إلى خديجة رضى الله عنها ويقول زملونى زملونى إشارة إلى البدايات الوحيية ويوم ولا تعجل إشارة إلى النهايات الكشفية ونظير ذلك لأهل البدايات قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[2] أى انزعجت وخافت وهذه صفة أهل البدايات وأما أهل النهاية فصفتهم التمكين والثبات والطمأنينة قال الله سبحانه وتعالى واصفًا لهم ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[3] وكان معروف الكرخى رحمه الله كثيراً ما يقول فى مجلسه عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة فقال إليه رجل من أصحابه وقال يا سيدى إذا كان عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، فعند ذكر الله تعالى ما ينزل؟ فغشى على الشيخ ساعة ثم أفاق، وقال عند ذكر الله تنزل الطمأنينة ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ومن ههنا عرف التلوين والتمكين فالتلوين عبارة عن الانتقال من حال إلى حال، وتحول من صفة إلى وصف، وترق من مقام، إلى مقام فهذا كله وصف من هو فى الطريق لم يصل إلى الآن، فما دام فى الطريق فهو متلون فإذا وصل المنزل فهو متمكن، والذى يترجح عندى أن المتلون قابل للزيادة والنقص فى حالة ومقامه بحسب تقلبه ببقائه مع بشريته ورجوعه إليها، والمتمكن أمن من النقص لخنوس إحساسه وانخلاعه عن نفسه وفنائه عن جثمانيته لاستيلاء سلطان الحقيقة عليه ومحوه

---

(١) [سورة طه: آية ١١٤].

(٢) [سورة الأنفال: آية ٢].

(٣) [سورة الرعد: آية ٢٨].

فى ثبوتها وفنائه فى بقائها فهو متمكن من حاله لا يرده الحق سبحانه وتعالى إلى معلومات نفسه ولا مألوفات جنسه بل هو متمكن من حاله يحسب ما يستحق من الحق سبحانه وتعالى.

(**نكتة**) فعلى هذا التقدير كان موسى عليه السلام متلونا إذا رجع من حضرة المناجاة والمكالمة وقد أثر حاله على وجهه فلا ينظر أحد إليه إلا عمى لتمكن حاله فيه حتى أذن الله له أن يتبرقع.

ومحمد ﷺ كان متمكنًا لأنه رجع من حضرة المشاهدة ولم يؤثر فيه حاله ولا تغير عليه أمر، فهو متمكن لأنه لم يزل فى حضرة ومشاهدة فتقل من حضرة إلى حضرة ومن رؤية إلى رؤية وهو معنى قوله ﷺ «لست كأحدكم» وكقوله «لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى» ونظير هذا قصة زليخا وصواحبانها كن صواحباتها أصحاب تلوين فلذلك لم يطقن الثبوت عند تجلى جمال يوسف عليه السلام بل دهشن بمشاهدته حتى أثر فيهن الحال وأخرجهن عن طور الاحساس واعتراهن الالتباس حتى ﴿**قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾(1) وقطعن أيديهن ولم يشعرن وأما زليخا فلتمكها فى حالها ما تغير عليها الحال ولا أثر ذلك فيها لأنها لم تزل فى مشاهدة يوسف حاضرة معه وقد أنشد لسان حالها مترجمًا عن حالها

(فقلت) فى ذلك.

إذا لم يكن معنى حديثك لى يروى فلا مهجتى تشفى ولا كبدى تروى

نظرت فلم أنظر سواك أحبه ولولاك ما طاب الهوى الذى يهوى

---

(1) [سورة يوسف: آية 31].

ولا اجتلاك الفكر فى خلوة الرضى وغيبت قال الناس ضلت به الأهوا
لعمرك ما ضل المحب وما غوى ولكنهم لما عموا أخطأوا الفتوى
فلو شاهدوا معنى جمالك مثلما شهدت بعين القلب ما أنكروا الدعوى
خلعت عذارى فى هواك ولم يكن خليع عذار سره فى الهوى نجوى
ومزقت أثواب الوقار تهتكا عليك وطابت فى محبتك البلوى
فما فى الهوى شكوى ولو مزق الحشا وعار على العشاق أن يعلنوا الشكوى
وما علموا للحب داء سوى الهوى وعندى أسباب الهوى كلها أدوا
وكم كنت من خوف الهوى اتقى الهوى ولكنما حكم الهوى غلب التقوى

(**فصل**) واعلم أن التلون والتمكن وصفان يشيران إلى حالين فى محلين فحال التلوين فى محل دار الملك وحال التمكين فى محل دار الملكوت وهما عالما الغيب والشهادة فمن شهد عالم الغيب غاب عن عالم الشهادة فلم يبق له رجوع إلى ما غاب عنه فهو متمكن فى شهوده غائب عن وجوده ونسبة ذلك من الآدمى وقلبه وقالبه، فالقوالب عالم الشهادة فى دار الملك والقلوب عالم الغيب فى دار الملكوت، فجثمانيتك عالم ملكك وروحانيتك عالم ملكوتك، فمن أشرفه الله تعالى على جوارحه فاستعملها فى مصالحه فقد ملك دار ملكه، ومن أشهده غيب قلبه وأنزله منازل حبه وقربه فقد شهد ملكوت ربه، فأنت مكون من كونين مخلوق من عالمين سفلى وعلوى ملكى ملكون قال الله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾[1] فكان من

---

(١) [سورة ص: آية ٧٢].

التسوية جثمانيتك البشرية، وكان من النفخ روحانيتك المعنوية، وكل مخلوق خلق من كلمة كن وأنت كذلك، وأنت زدت على ذلك بالتسوية والنفخ فمالك من بركات التسوية حركات جوارحك لخدمته، ونالك من بركات النفخ حركات روحانيتك بمحبته ومعرفته، فأنت أنموذج الكون ومراد الكون، والكون مراد لا لنفسه بل لأجلك وأنت مراد لذاتك، والحق سبحانه خلق الكون لأجلك وخلقك لأجل معرفته ومحبته ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾[1] أى يوحدون وقيل يعرفون وهو معنى قوله « كنت كنزًا لا أعرف فأحببت أن أعرف فحقت خلقًا وتعرفت إليهم فبى عرفونى ».

ثم أعلم أن الكون نسخة منك وتزيد على ما في الكون بما خصك به معارفه وحكمه وأسراره وأنواره وتجلياته ومنازلاته كما أن الفيل وإن كبر شبحه نسخة من البعوضة وإن صغرت، لأن فيها ما فى الفيل من جميع أجزاء جوارحه وتزيد عليه بأجنحتها.

وقد شرحت ذلك فى هذه الأبيات فافهم:

إذا كنت تقرأ علم الحروف ... فشخصك لوح به أسطر
وتمثال ذلك أنموذج ... لكل الوجود لمن يبصر
حروف معانيك لا تنقرى ... لذى الجهل كلا ولا تظهر
ومن يك غدًا بأسرارها ... فمعروفها عنده منكر
لئن كان جزؤك جزء صغير ... ففيك انطوى العالم الأكبر

---

(١) [سورة الذاريات: آية ٥٦].

فـــلا ذرة منك إلا غــــدت بهـــا بوزن الكون بل أكـــثـــر

ولا قـــطـــرة مـــنـــك إلا وفـــى ينابيع أســــرارها أبحــــر

وكل الوجــود إذا قــســتــــه إليك فــذاك هو الأصــغــر

ومـا فــيــه من عــرض حــاضـر يــزول وأنــت بــه جـــوهـر

فــأنت الوجــود وكل الوجــود ومـا فــيك مـوجـود لا يحـصـر

وفــــيك أشــعـــة لاهوته من البــــدر فى نـوره أنور

وشــمس المعــارف إشـراقــهــا من الشــمس فى ضـوئهـا أظهـر

لقد أظهـرت سـيمـاء القلوب خــفــايا الغـيــوب لمن يبـصـر

ســمــاء على قطب توحــيــده تدور اشــتــيــاقًـا ولا تقـصـر

لهـــا من أشــعـــة عــرفـــانه نجــوم باخـــلاصــهـــا تزهر

فــمشــرقــهـا أفق ســويدائهـا ومــغــربهـــا ســره المضــمــر

وعــرش الصــفــاء لهــا مـركــز إليــه انتــهــا كلمــا يسـيطر

هنـاك المليك تجلى إلهـــــا فــأوحى إليــهــا كلمــا يأمــر

فـقـامت بتـحـقـيق مـأموره على أنهـــــا أبداً تحــــذر

وترتاح مــربع أحـــبــابهـــا ولا عـــجب حــيث لا يبـــصـر

رعـــود الجــفـــا إذا زجــرت فــبـرق الجـفـا لهـا مـســفـر

وان أعـوز الغـيـث حـصـبـاءها فـــمـــاء الحـــيـــاء بهـــا يقطر

فــروض رياضــتــهـــا مــزهر ورحب مــحــبــتــهــا مــثــمــر

تمر بهـا نسـمـات القبـول فيبـدو شـذا المسك بل أعطر
ويسـرى إلى السر من عرفها لطائف تطوى ولا تنشـر
فيسكرنا نشق أنفاسـها ومن يك مـزكـوم لا يسكر
يطاف بكاسـات راحـاتها وفى حـانهـا حلل المسكر
وتتلى بسـاحـات حاناتها مثـانى للذكـر لا تفتـر
فمن صم عن تسمع ألحانها فذاك الشقى هو الأخسـر
ومن ظل عن بابها معرضًا فذاك الغوى هو المدبر

فصــــل

[كيف تتعرف إلى الله]

فمن فتح الله أعين يقظته وأشهده خفايا سريرته علم أنه لم يكن في الكونين ولا في العالمين من مفترقاته شيء إلا وهو مندمج في طوايا ذاته مندرج في خفايا صفاته وهذا سر قوله «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وقد ظهر لي من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه، وهو أن الله تعالى وضع هذه الروح الروحانية في هذه الجثمانية لطيفة لا هوتية مودعة في كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته وربانيته، ووجه الاستدلال بذلك من عشرة أوجه.

الوجه الأول: أن هذا الهيكل الإنساني لما كان مفتقراً إلى مدبر ومحرك وهذه الروح تدبره وتحركه علمنا أن العالم لا بد له من محرك ومدبر.

الوجه الثاني: لما كان مدبرا الجسد واحداً وهو الروح علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له في تدبيره وتقديره لا جائز أن يكون له شريك في ملكه قال الله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[1] الآية وقال تعالى ﴿**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾[2] وقال سبحانه وتعالى ﴿**وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ**﴾[3] الآية.

الوجه الثالث: لما كان هذا الجسد لا يتحرك إلا بإرادة الروح وتحريكها له علمنا أنه مريد لما هو كائن في ملكه لا يتحرك متحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه.

---

(١) [سورة الأنبياء: آية ٢٢].

(٢) [سورة الإسراء: آية ٤٣]. (٣) [سورة المؤمنون: آية ٩١].

الوجه الرابع: لما كان لا يتحرك الجسد شيء إلا بعلم الروح وشعورها به ولا يخفى على الروح من حركات الجسد وسكناته شيء علمنا أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

الوجه الخامس: هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء بل هو قريب إلى كل شيء فى الجسد، علمنا أنه قريب إلى كل شيء ليس شيء أقرب إليه من شيء، ولا شيء أبعد عنه من شيء، لا بمعنى قرب المسافة لأنه منزه عن ذلك.

الوجه السادس: لما كان الروح موجوداً قبل وجود الجسد ويكون موجوداً بعد عدم الجسد علمنا أنه سبحانه موجود قبل كون خلقه ويكون موجوداً بعد فقد خلقه مازال ولا يزال وتقدس عن الزوال.

الوجه السابع: لما كان الروح فى الجسد لا يعرف له كيفية علمنا أنه سبحانه منزه على الكيفية.

الوجه الثامن: لما كان الروح فى الجسد لا يعرف له أينية علمنا أنه سبحانه منزه عن الكيفية والأينية فلا يوصف بأين ولا بكيف بل الروح موجود فى سائر الجسد ما خلا شيء من الجسد، كذلك الحق سبحانه موجود فى كل مكان وتنزه عن المكان والزمان.

الوجه التاسع: لما كان الروح فى الجسد لا يحس ولا يمس علمنا أنه تعالى منزه عن الحس واللمس والمس.

الوجه العاشر: لما كان الروح فى الجسد لا يدرك بالبصر علمنا أنه سبحانه لا تدركه الأبصار ولا يمثل بالصور والآثار ولا يشبه بالشموس

والأقمار ليس كمثله شيء. وهو السميع البصير فهذا معنى قوله ﷺ (من عرف نفسه فقد عرف ربه فطوبى لمن عرف وبذنبه اعترف) ولهذا الحديث تفسير آخر وهو أن تعرف صفات نفسك على الضد من صفات ربك فمن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء ومن عرف نفسه بالجفاء، عرف ربه بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه كما هي عرف ربه كما هو.

وأعلم أنه لا سبيل لك إلى معرفة إياك كما إياك فكيف لك سبيل إلى معرفة إياه كما إياه، فكأنه في قوله من عرف نفسه عرف ربه علق مستحيلاً على مستحيل لأنه يستحيل أن تعرف نفسكَ وكيفيتها وكميتها فإذا كنت لا تطيق أن تصف نفسك التي هي بين جنبيك بكيفية أو أينية ولا شبحية ولا هيكلية ولا هي بمرئية فكيف يليق بعبوديتك أن تصف الربوبية بكيف وأين وهو مقدس عن الكيف والأين.

وفي ذلك أقول:

قل لمن يفهم عني ما أقول — قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه — ضربت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إياك ولا — تدر من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفات ركبت — فيك حارت في خفاياها العقول
أين منك الروح في جوهرها — هل تراها فترى كيف تجول
هذه الأنفاس هل تحصرها — لا ولا تدري متى عنك تزول
أين منك العقل والفهم إذا — غلب النوم فقل لي يا جهول

أنت أكل الخبـز لا تعـرفـه كيف يجرى منك أم كيف تبول

فـإذا كـانت طواياك التى بين جنبيك ترى فيها ضلول

كيف ندرى من على العرش استوى لا تقل كيف استوى كيف النزول

كيف يحكى أم ترى كيف يرى فلعمرى ليس ذا إلا فضول

فهـو لا أين ولا كيف له وهو رب الكيف والكيف يحول

هو فرق الفوق لا فوق له وهو فى كل النواحى لا يزول

جل ذاتًا وصفات وسما وتعالى قدره عما أقول

(واعلم) أن من عرف نفسه عرف ربه وعرف ما يراد منه فأشغل نفسه واستعملها فيما خلقت له فأوقفها فى مواقف العبودية للقيام بحقوق الربوبية ومتى اشتغلبت بمعارضة الربوبية فاتتها العبودية ولم تدرك الربوبية، وها أنا أشرح لك صفات ذلك ومعنى صفاتك، لتعلم ما يراد منك فى حياتك ومماتك (واعلم) أن الحق سبحانه لما أراد أن يبنى صورة آدم من زمان تقادم ابتناها على صورة المدينة وأتقن فيها من المبانى ما يدل على قدرة البانى وحرك فيها مثالث ومثانى يشيران ليس له ثان، ثم نصب وسط هذه المدينة قصر المملكة وسمى ذلك القصر بالقلب إذ هو بيت الرب. وجعل مدار هذه المدينة عليه ومرجع الكل إليه بإشارة الأوان « فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهى القلب ». ووضع فى هذا القصر سرير العز والسلطان وأجلس عليه ملكًا يقال له الإيمان. وبث الجوارح فى خدمته كالغلمان. فقال اللسان أنا الترجمان. وقالت العينان ونحن الحارستان. وقالت الأذنان ونحن الجاسوسان وقالت القدمان ونحن

الساعيتان. وقالت اليدان ونحن العاملان وقالت المكان ونحن الشاهدان. وقال صاحب الديوان وكما تدين تدان ثم جعل له وزيراً وهو العقل. فقال الوزير أيها الملك لابد لك من خاصة. تصطفيهم لنفسك خاصة. يؤثرنك على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. فأول ما تحتاج إلى تاج وهو الولاية. وإلى معراج وهو العناية. وإلى دليل وهو الهداية. وإلى مركوب وهو الصدق. وإلى حلة وهى السكينة. وإلى صاحب وهو العلم. وإلى بواب وهو الورع. وإلى سياف وهو الحق. وإلى كاتب وهو المراقبة. وإلى سجن وهو الخوف. وإلى ميدان وهو الرجاء وإلى سراج وهو الحكمة. وإلى نديم وهو الفكر: وإلى خزانة وهو اليقين وإلى كنز وهو القناعة. وإلى صاحب بريد وهو الفراشة. ثم أيها الملك تنظر إلى رعيتك بعين الرحمة وتفتح خزائن الحكمة فتعدل بينهم فى القسمة. وتبعث إلى كل واحد قسمة فيقيم به رسمه. فقال الملك أنظر أنت فى الرعية وأزل عنهم الشكية. وتولّ تفرقة الجامكية. فقال اليدان أنا على جميع الآلة: وقالت الأسنان أنا أطحن وأعزل النخالة. قال الريق أنا أعجن وأتولى إلى المعدة إرساله. وقال المعدة أنا أطبخ وماأريد على ذلك عماله.

وقالت الكبد أن آخذ ما صفا وأترك الحثالة. فقال القدر وأنا أتولى تفرقتها وقسمتها بالعدالة: فأبعث إلى كل عضو ما يطيق احتماله. فلما فرقت الجامكية نفد إلاّ حوالة وصحح الملك أحواله. قال له الوزير ما بعد النفقة إلا العرض وأداء الفرض. فنادى فى جيشك بالطول والعرض: لينظر البعض للبعض. قبل أن تبدل الأرض غير الأرض: فنادى مناديه يا معشر الرعية إن الملك قد أقسم بالأزلية. أن من عدل عن طريق السرية. وكفر بنعمة العطية وأنفقها فى الخطية. فلقد أفسد النية ونقض البنية. وأولئك هم شر البرية.

وإن للملك عدواً قد سكن جوارحه. يقال له النفس الأمارة. وهى تنازعه الإمارة. واستنصرت عليه بالدنيا الغرارة. وظاهرها الهوى وبعث إليها أنصاره. وجاء الشيطان فكتب له منشور الوزارة. قد شنوا فى أرض الملك الغارة. فياخيل الله اركبى. ومن الأعداء لا تهربى. فهنالك ركب القلب بين ميسرة خوفه. وميمنة رجائه ومقدمة توكله. وساقة التجائه متحملة ﴿ إياك نعبد ﴾ ومتمسكة بإذيال ﴿ وإياك نستعين ﴾. فلما وصل بجنوده إلى معبوده بصدق النية. نادى مناديه فى ناديه إن الله مبتليكم بنهر الدنيا الدنية. فمن شرب منه فليس منى. ومن عول عليه فليتنحّ عنى، فقال أهل الضرورة لا بد من قيام الصورة. فجاءت مروحة الراحة بإباحة إلا من اغترف غرفة بيده واعترف بذنبه.

فأما من عدموا الفطنة. ووقعوا فى شرك الفتنة. فشربوا وترووا حتى أورتهم البطنة فلما قابلهم القوم. قالوا لا طاقة لنا اليوم فقال الذين صبروا ابتغاء وجه الله ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] فالتقا بجيشهما فى مجمع بحريهما، هذا عذب فرات وهذا ملح إجاج. فكان التوكل موكلا بالحرص. والزهد محاذيا بالدنيا. والتواضع مدافعًا للعجب. والإخلاص ماحيًا للربا. والتقوى نافية للدعوى. والخوف مواقعًا للهوى. والتسبيح والتقديس فى محاربة إبليس. فتقدم حزب الله وشعارهم اللهم إنا جعلنا بك أقدامنا فثبت أقدامنا فإنا لا ندرى ما قدامنا فهزموهم بإذن الله وانتصروا وما النصر إلا من عند الله. فلم تر منهم إلا مول دبره. وقاصم عمره. وأصبحت منازل الهوى والنفس. كأن لم تغن بالأمس.

---

(١) [سورة البقرة: آية ٢٤٩].

ومازالت بأسرها فى أسرها . حتى اعترفت بخسرها واتصفت بكسرها . وناداها من له المنة . يا أيتها النفس المطمئنة . إرجعى إلى ربك .

يا نفس توبى اليوم من قبل أن ... تفتضحى فى الغد بين العباد
يا نفس إن الله منك اشترى ... بشرط تسليم جميع القياد
فاستبشرى بالبيع واستسلمى ... واصلحى يا نفس منك الفساد
أفلست والسلعة مغبونة ... لا تشترى والسوق سوق الكساد
والركب قد جد مسيراً ... لهول يوم العرض قدمت زاد
ابيض مشيبى فلا ... يزداد وجه القلب إلا سواد
واخجلتى واحسرتى إن أكن ... من بين صحبى قد حرمت المراد
فخالفى يا نفس حكم الهوى ... وجاهدى فى الله حق الجهاد
وازرعى زرع التقى واصبرى ... وصابرى فى حرب أهل العناد

فصـــل

[حقيقة معرفة الرب]

وقد أوضحت فى هذه الإشارة فى إيراد ما يراد من العبد فى خدمة الرب ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(1). فإذا اشتغلت بمعرفة من أنت شغلك بمعرفة من هو. ويجوز أن تعرف من هو ولا يجوز أن تعرف ما هو لأن ما هو سؤال عن ماهية ذاته ولا ماهية لذاته، ومن هو سؤال عن أسمائه وصفاته وما حصل أهل الأرض والسماء إلا على الصفات والأسماء قال الله تعالى ﴿ لَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(2) وسر هذا الرمز يظهر من سؤال فرعون لموسى عليه السلام حين قال له موسى ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(3) فسأله فرعون ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(4) فقال موسى ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾(5) وهذا الجواب يسمى جواب العدول لأنه عدل فيه عن مطابقة السؤال لأن فرعون سأل عن ماهية الله سبحانه وأجاب موسى عن قدرته وصفاته فجادله حين خلط فى سؤاله وسأل عما لا يمكن إدراكه فجازله أن يعدل غن سؤاله.

وقد سئل يحيى بن معاذ الرازى فقيل له أخبرنا عن الله تعالى فقال: إله واحد، فقيل: كيف هو؟ فقال: إله قادر، فقيل: فأين هو؟ فقال: بالمرصاد، فقال السائل: لم أسألك عن هذا، فقال: ما كان غير هذا فهو صفة المخلوقين فأما صفة الخالق فالذى أخبرت عنه.

---

(1) [سورة ق: آية ٣٧].

(2) [سورة الزخرف: آية ٨٧].

(3) [سورة الزخرف: آية ٤٦].

(4) [سورة الشعراء: آية ٢٣].

(5) [سورة الشعراء: آية ٢٤].

وسئل بعض العارفين عن قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(١) فقال الحق سبحانه عرفنا بهذا القول من هو وما عرفنا ما هو لأنه لا يعرف ما هو إلا هو، وقيل لصوفي أين الله؟ فقال قبحك الله، تطلب مع العين أين، يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٢) وسئل الشبلى عن قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ فقال الرحمن لم يزل والعرش محدث فالعرش بالرحمن استوى، وسئل ذو النون عن قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ فقال أثبت ذاته ونفى مكانه فهو موجود بذاته والأشياء كلها موجودة بحكمته كما شاء.

وسئل الإمام أحمد بن حنبل على الاستواء فقال: استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر وسئل الإمام الشافعى عن الاستواء فقال آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسى فى الأدراك وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك، وقال أبو حنيفة: من قال لا أعرف الله أفى السماء هو أم فى الأرض هو فقد كفر، لأن هذا القول يوهم أن لله مكانًا، ومن توهم أن الله مكانًا فهو مشبه، وسئل الإمام مالك عن الاستواء فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وهو الذى ذهب إليه الأئمة الأربعة ولا خلاف بينهم فى ذلك.

ومن توهم أن بين أحد من الأئمة اختلافًا فى صحة الاعتقاد فقد أعظم الفرية عن أئمة الأمة وأساء ظنه بأئمة المسلمين وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن الشافعي رضى الله عنهما فقال ما الذى أقول فيه وهو الذى أخرج من قشور التشبيه لبابها، وأطلع على معارفها وأربابها، وجمع بمذهب أكنافها وأطنابها، فالمحدثون صيادلة والشافعى طبيبهم، والفقهاء أكبار والشافعى كبيرهم، وسئل الإمام أبو المعالى عن الإمام أحمد فقال: إن أحمد ضرب

(١) [سورة طه: آية ٥]. (٢) [سورة الحديد: آية ٤].

بالسياط. ولم يزغ عن سواء الصراط. غسل وجه السنة من غبار البدعة وكشف الغمة عن عقيدة هذه الأمة.

(وها أنا) أذكر لك في التنزيه ما يجلو عن قلبك درن التشبيه (فأقول) :

يا أيها المدعى لله عرفانا وقد تفوه بالتوحيد إعلانًا
وتطلب الحق بالعقل الضعيف وبالقياس والرأى تحقيقًا وتبيانًا
ظننت جهلا بأن الله تدركه ثواقب الفكر أو تدريه إيقانًا
أو العقول أحاطته بديهتها أو هل أقامت به إياه برهانًا
أو العلوم وما سطرت فى كتب هل هن إلا على التحقيق عميانًا
الله أعظم شأنًا أن يحيط به علم وعقل ورأى جل سلطانا
ازدرى بك العقل إن عطلته عدما وخانك العقل إن صورت جثمانًا
إياك ويحك والتعطيل فى صفة واحذر تكن عابداً بالوصف أو ثانا
فإن سمعت أحاديث الصفات فقل آمنت بالله تصديقًا وإيمانًا
ورد على خفاياه لعالمه فإن تأولت قد أولت بهتانًا
إن قيل كيف استوى قل كيف شا ولا تصغى إلى الكيف تضحى ثم ندمانًا
أو قيل أين فقل حيث اتجهت تجد مولانا ما غاب طرفًا لا ولا بانا
هو الذى فوق كل الفوق رتبته وحيث كنت وجدت الله ديانا
من ظن جهلا بأن العرش يحمله قد افترى واجترى ظلمًا وعدوانًا
العرش والفرش والكرسى صنعته وقد برأهن إحكامًا وإتقانًا

محجبات ولا علم ولا خبر قد حير الكل فقدانًا ووجدانًا
العرش يطلب من قد عز مطلبه ولم يزل فى طلاب الله ولهانا
الخلق فى العلم تاهوا فى تطلبه والعلم فى الإسم لا ينفك حيرانا
والإسم دل بسر فى غوامضه على المسمى فصار الإسم عنوانًا
وعز ذاك المسمى ليس يدركه خلق ولو جادلوا شيبًا وشبانا
سارت إليه قلوب العارفين على نجائب الفكر وجدانًا وركبانًا
وفارقوا الأهل والأوطان واعتزلوا وصابروا الليل أحيانًا وأزمانًا
حتى انتهوا منتهى علم ومعرفة وكوشفوا ببديع السر إعلانًا
هناك طابوا وغابوا عن صفاتهم وألهب الشوق فى الأحشاء نيرانًا
وعرفوا بجميل الوصف فاغترفوا وصيروا القلب للعرفان ميدانًا
يرون فى الناس سكرى من معارفهم كذاك من عرفوه راح سكرانا
هبت عليهم وقد ناجاهم سحرا نسيمة عبقت روحًا وريحانًا
فأسكنت فى قلوب القوم معرفة وحركت منهم وجدًا وأشجانًا
إذا بدا وتجلى فى حضرته ساقى المدام أو أهدى الكأس ملانًا
ناداهموا سكروا من قبل ما شربوا وظل شاربهم بالشرب ظمآنًا
لما تغنى لهم حاديهم انخلعوا عما بأيديهم حمدًا وشكرانًا
وأسلموا الدين والدنيا لطالبها وطهروا القلب للمحبوب أوطانًا
هذا اعتقادى فإن قصرت فى عملى فاسأل الله توفيقًا وغفرانًا

فصل

[كيفية الوصول إلى معرفة الله]

ثم اعلم أنه لا يوصل إلى معرفة الله تعالى إلا بالعجز عن معرفته لأن كل إشارة يشير بها الخلق إلى الحق سبحانه مردودة عليهم لأنها من جنسهم مخلوقة مثلهم حتى يشير إلى الحق بالحق ولا سبيل لهم إلى ذلك، وأوحى الله إلى داود عليه السلام يا داود اعرفني واعرف نفسك، ففكر داود ساعة ثم قال: إلهى عرفتك بالفردانية والقدرة والبقاء، وعرفت نفسى بالضعف والعجز والفناء، فقال الله تعالى ياداود الآن عرفتنى حق المعرفة.

وقد سئل الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه بم عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى، فقيل له: وهل يتأتى للبشر أن يدركه؟ فقال العجز عن درك الإدراك إدراك، ومعنى هذه الإشارة الصديقية أن الحواس الخمس التى هى آلات الادراك السائر المحسوسات لا وصول لها إلى إدراكه، فإذا علمت أن الحق سبحانه وتعالى منزه عن إدراك هذه الحواس لكنه ذاته وصفاته لعجزها عن إدراكه فقد عرفت الحق.

وقد سئل مصباح التوحيد ومفتاح التغريد على بن أبى طالب كرم الله وجهه: بم عرفت ربك؟ فقال: عرفته بما عرفنى به نفسه لا يدرك بالحواس. ولا يقاس بالناس. قريب فى بعده بعيد فى قربه. فوق كل شىء. ولا يقال تحته شىء. أمام كل شىء. ولا يقال أمامه شىء. وهو فى كل شىء لا كشىء فى شىء. فسبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره وقال على رضي الله عنه مخبرا عن حقيقة التوحيد ركضت الأرواح فى ميادين المعرفة فسبق روح نبينا صلى الله عليه وسلم أرواح الأنبياء فخلع عليها خلعة المعراج فقيل له وما غايتها أى المعرفة فقال

الدهش فى كبرياء الله عز وجل. وسئل على أيضاً رضي الله عنه هلى عرفت الله بمحمد أو عرفت محمد بالله؟ فأجاب لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكان محمد أوثق فى نفسى من الله، ولو عرفت محمداً بالله لما احتجت إلى رسول الله ولكن الله عرفنى نفسه بلا كيف كما شاء، وبعث محمداً ﷺ بتبلغي أحكام القرآن وبيان مفصلات الإسلام والإيمان وإثبات الحجة وتقويم الناس على منهج الإخلاص، فصدقت بما جاء به، فاعلم أنه يستحيل الوصول إلى معرفة شيء من معرفة الله بغير الله ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بالله، فإن الأفهام والأوهام والعقول والخواطر عاجزة قاصرة عن إدراك صورها وعللها فكيف تطيق إدراك مصورها ومعيدها وإنما الحق سبحانه خلق الخلق كما شاء على ما شاء ووفق ما شاء لما شاء وعرف من شاء بما شاء، وفى الحديث: «أن الله خلق خلقه فى ظلمه ثم رش عليهم نوراً من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ذلك النور ضل» فمعرفة العبد لربه نور الله الذى يقذفه فى قلب عبده فيدرك بذلك النور أسرار ملكه، ويشاهد غيب ملكوته، ويلاحظ صفات جبروته، ثم تنزل قوة إدراكه على مقدار ما أفيض عليه من ذلك النور، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ**﴾[1] الآية أى مثل نور المؤمن هكذا كان يقرأ أبى بن كعب وكان يقرأعبد الله بن سعود رضي الله عنهما مثل نوره فى قلب المؤمن، وإنما سمى الحق سبحانه وتعالى نفسه نوراً لأن النور هو الضياء المظهر للأشياء، فإذا تسمى بما يظهر غيره بالإضافة إلى الإدراك نوراً فلأن يسمى من يظهر الأشياء من كتم العدم إلى قضاء الوجود بالإيجاد نوراً أولى، بل هو نور النور مظهر المظهرات، ثم ضرب مثل نوره فى قلب المؤمن وشبهه فشبه صدره بالمشكاة، وشبه قلبه فى صدره بالقنديل فى المشكاة،

---

(١) [سورة النور: آية ٣٥].

وشبه معرفته بالمصباح فى القنديل وشبه القنديل الذى هو قلبه بالكوكب الدرى وشبه امداده بمعرفته بالزيت الصافى الذى يمد به السراج فى الاشعال.

ومعنى آخر لطيف المشكاة بمنزلة بشريتك، والمصباح بمنزلة نور توحيدك، والزجاجة بمنزلة قلبك وتشبيه المشكاة بالبشرية لما فى البشرية من الكثافة وهو محل الظل والسواد، والمصباح كلما كان فى ا لظل والسواد كان أشد فى الاشتعال والإيقاد، وتشبيه نور التوحيد بالمصباح لأن المصباح يستنير به ما يحاوره ويحل فيه، ونور التوحيد يستضاء به ما يجاوره ويحل فيه، وشبه القلب بالزجاجة لما فيها من اللطافة فإن شفافها يطرح أشعة الأنوار على ما يقابلها ويحاذيها من الأجرام، والقلب شفاف تعبر منه أشعة أنوار التوحيد إلى ما وراءه من الجوارح، وإليه الإشارة النبوية فى قوله لذلك الرجل الذى كان يعبث فى صلاته: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه» وقيل فيه معنى آخر وهو أنه مثل النور قلب النبى محمد ﷺ (وروى) مقاتل عن الضحاك قال هذا مثل للنبى ﷺ فشبه عبد المطلب بالكوة وهى المشكاة، وشبه عبد الله بالزجاجة، وشبه النبى ﷺ بالمصباح كان فى صلبهما فورث النبوة من إبراهيم عليه السلام وهو قوله توقد من شجرة مباركة وإنما سمى إبراهيم عليه السلام شجرة لأن أكثر الأنبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية أى لا يهوديًا ولا نصرانيًا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين.

فصل

واعلم وفقنا الله وإياك أن لكل حق حقيقة ولك حقيقة أهل ولكل أهل علامة، وبالعلامة يتبين المحق من البطل. وكل من أجلسه الله على مائدة

معرفته وتناول من كئوس محبته رفع سيماها على وجهه وتبين أثرها فى حركاته وسكناته قال الله تعالى: ﴿ **تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ** ﴾(١) وقال الله: ﴿ **سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ** ﴾(٢) قال ﷺ من كانت سيرته حسنة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به ويشهد عليه بالخبر، وقال أبو يزيد العارف على لسانه وصف الربوبية وعلى أركانه خدمة الديمومية وعلى نفسه أثرالعبودية وفى قلبه هيبة الفردانية وفى سره طرب الإلهية، وفى روحه شعب الوحدانية.

وقالت رابعة للعارف ثلاث علامات: بدنه مشغول بالطلب، وقلبه مشغول بالشغب، وروحه مشغولة بالطرب، وقيل قلب العارف منور بمصابيح المعرفة، ووجهه مزين بسيماء الطاعة وأطرافه ذائبة من خوف القطيعة وسره منقطع إلى الله من كل علاقة، وعلامة ذلك أن يكون خادمًا بالأركان ذاكرًا باللسان مستأنسًا به فى كل أوان، ويكون نفسه فى الدنيا غريبًا وقلبه فى صدره غريبًا، وروحه فى جسده غريبًا وسره فى حاله غريبًا والغريب أبدًا فى غربته كئيب فلا يستريح العارف من غم الغربة ما لم يصل إلى الحبيب.

ومن ههنا يظهر معنى قوله ﷺ: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» فتأملت حقيقة هذا الحديث فرأيت أن الأرواح خلقت قبل الأجساد بألفى عام، ثم أفيضت من عالمها الروحانى النوراني فأودعت ظلمة هذا الجسد الترابي الطبيعى الجثمانى، والجسد مخلوق من التراب والتراب كائن قبل كون الآدمى، فهما فى الحقيقة جلبا غريبين غربا عن وطنهما وأبعدا عن أصليتهما فاجتمعا اجتماع غربة كل واحد منهما يشير إلى وطنه ويطير إلى سكنه، فالجسد أخلد إلى الأرض والروح بدون السمو لم يرض (ولله) در القائل:

---

(١) [سورة البقرة: آية ٢٧٣]. (٢) [سورة الفتح: آية ٢٩].

راحت مشرقة ورحت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

ومن تأمل معنى هذه الأبيات فهم ما أشرنا إليه. وعلم ما عولنا عليه فإن فيها معنى ازدواج الأشباح بالأرواح المستفاد من سر قوله تعالى ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ فمن كان له بصيرة مستنيرة أبصر مصباح النجاح ومن كان له أذن سامعة سمع منادى الفلاح:

يا خلى قد بلغت القصدا   وعرفت الغرام هزلا وجدا
خليانى من ذكر سلع ونجد   ودعانى من حب سلمى وسعدا
أنا لى فى حشاشة القلب خودا   أقسمت للعيون لا تتبدا
أبرزت القلوب حلة حسن   وتجلت لها بوجه مفدى
حجبوها فليس تظهر إلا   لمحب صفا انتهاء ومبدا
شهدت حين غيبت كل غيب   فهى تخفى صونا لها أن تحدا
ملكت فى الشهود قبضًا وبسطًا   وحكمت فى الوجود جزراً ومداً
عرفوها مظاهراً فتعالت   وتغالت فما يريد مردا
ذات أنس ووحشة ونفار   وقرار ضد لضد تبدا
ركبت من تضادد فلهذا   جمعت فى المذاق صبراً وشهدا
فهى بدر وفى الحقيقة شمس   وهى نار تريك حراً وبرداً
وهى روح وفى المحبة راح   جمعت فى الكئوس غبًا ورشدا
وهى ذات لكل ذات وتبغى   بصفات صفت مراحًا ومغدا

(١) [سورة النور: آية ٣٥].

وهى روح الوجود فرقًا وجمعًا		وهى كون الاكوان وجدًا وفقدا

هبطت من محل عز رفيع		فتبدا لها فؤادى مهدا
فأتلفنا لفرقة وتلاق		بعده لا نخاف فى القرب بعدا
وازدوجنا فنحن زوج ولكن		إن تأملت كان ذا الزوج فردا
نحن فى شرعة الهوى قد خلقنا		نقطع الحب فيه وصلا وصدا
لو ترانا وقد هدت كل عين		نتشاكى من الجو ما تعدا
هى تصغى فاشتكى ما ألاقى		ثم أصغى فتشتكى ليس تهدى
وهى منى وكلما بى منها		من صدود وكل ما قد تصدى
وتراها إذا ترنم حاد		برباها تذوب شوقًا ووجدا
لا تلمها إذا بدت بحنين		وأنين يقد للقلب قدا
فلها معهد قديم وأنس		ليس ينسى وإن تطاول عهدا
ولها فى المقر مقعد صدق		فيه ضم الوصال مولى وعبدا

(ثم أعلم) أن الجسد والروح لما كانا غريبين دعيا من دار غربتهما إلى دار قربتهما ومن محل وحشتهما إلى محل أنستهما ومن ظلمة أنفسهما إلى حضرة قدسهما بتصريح، والله يدعو إلى دار السلام، ثم أعلمها قرب المنزل وسرعة المنقلب بتلويح ﴿ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾(١) فاتفقا على قطع مفازة الغربة لما بينهما من النسبة ولقد أحسن القائل:

---

(١) [سورة غافر: آية ٣٥].

أجارتنا إنا غريبان ها هنا وكل غريب للغريب نسيب

ثم أصطلحا على جمع زاد يقطعان به مسافة الطريق ويصلان به إلى ذلك الفريق، فوجدا من مشقة مسافة الطريق ما أفضى بهما إلى التفريق والتمزيق، وصبرا على ظمأ الهواجر حتى بلغت القلوب الحناجر، وصابرا على قيام الليل ومالا على أنفسهما كل الميل فتارة يطرقهما من مكان الخوف طارق فتجرى الدموع السوابق، وتارة يبرق لهما من أفق الرجاء بارق فيستريح إليه العاشق، وتارة يخفق لهما عن عرف القبول خافق فيسكن القلب الخافق، فما زالا بين انتهاض ونشاط وانقباض وانبساط حتى طويا البساط ووافيا عقبى الموت التى لا يعلم منها إلى أين الانحطاط، فتهيأ الروح للفراق وعزما على الانطلاق ﴿ **إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ** ﴾[1]فقال له ا الجسد وهو فى السياق أيها الخليل أههنا يترك الخليل خليله وقد حل بى ما لا يندفع بحيلة وما كانت أيام الصحبة إلا قليلة، فقال: إنما أسبقك إلى المنزل الأول وعليه المعول فأمهده بما معى من الزاد وأهبته بما أعددت من الصلاح والفساد ثم أعود إليك أيها الجسد فلا نفترق بعدها إلى الأبد فتنطلق الروح مع داعى ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً** ﴾[2] ويعود الجسد إلى منزل﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ** ﴾[3] (وقال) قائلهم:

خلقت من التراب فصرت حيًا وعلمت الفصيح من الخطاب

وعدت إلى التراب فصرت ميتًا كأنى ما برحت من التراب

خلقت من التراب بغير ذنب وارجع بالذنوب إلى التراب

---

(١) [سورة القيامة: آية ٣٠]. (٢) [سورة الفجر: آية ٢٨، ٢٩].

(٣) [سورة طه: آية ٥٥].

فإذا جاء بشير النشور بمنشور ونفخ فى الصور، تباشر أهل التوحيد بيوم الوعيد، فهنالك يقال للروح عد إلى جسدك المعهود وهلم إلى منهلك المورود وظلك الممدود ومقامك المحمود وحبيبك المشهود، فتتلقى الروح للجسد لقاء الغائب لغائبه ويتعانقان تعانق المحبوب لأحبابه ويتشاكيان ما لقيا من أوصابهما فى مصابهما واكتسابهما فى اغترابهما، ثم يقال لهما انطلقا إلى عرضة المجمع ومحشر الخلائق أجمع فثم عدل يخفض ويرفع ويعطى ويمنع وما شاء بعبده يصنع، فإذا قدم الأتراب من سفرة التراب نادى الحبيب بالأحباب، حدثونى ما حل بنفركم فى سفركم يا معشر الغياب، فيقول لسان الحال فى الجواب قال صاحب الكتاب ولم استعر فى كتابى لغيرى غير هذه الثلاثة أبيات وبيتين مفردين قبلهما فى هذا وقد علمت عليهما بقولى، فلله در القائل:

إذا حملت فيك المكاره وانتهت إلى أن تراك العين صارت محامدا

وإن بلغت منى الصبابة جهدها ودانت إلى رؤياك صارت فوائدا

وما سفرة أدنت إليك بعيدة ولو أفنت الأيام من كان قاصدا

أيها الحزين علينا كيف وصلت إلينا؟ قال: ركبت جواد توكلى عليك واشتياقى إليك فما أنزلنى إلا بين يديك، يا أيها الخائف من الفوت كيف وجدت الموت؟ فقال لما رأيت وصله مغائراً لصده وقربه مناقضاً لبعده فعرفت الشيء بضده فررت من دار قوم لا يؤمنون إلى دار قوم لا يحزنهم الفزع الأكبر، وأنت أيها الراجى كيف علمت أنك ناجى؟ فقال ثقتى بفضلك أمنتى من عذابك لأن كتاب الفضل سابق، وجواد الجود لاحق، فكيف لا أرجو أن أنجو وبرحمتك واثق، ويا أيها الزاهد كيف عهدك بتلك المعاهد؟ فقال سمعته

يقول: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾(١) فتركت ما عندى لما عنده ثم غمضت عينى عن الفانى فما فتحتها إلا على الباقى، ويا أيها المحب لنا كيف كان اتصالك بنا؟ فقال: هل كانت إلا شربة شربتها فى حضرة «يحبهم» فسكرت بها فى حانة «يحبونه» فما أفقت من ذلك المشروب إلا بمشاهدة المحبوب، فأنت أيها الذاكر ماذا جرى لك؟ قال: غبت لذة ذكره فلما حضرت إذا أنا فى حضرة المذكور، فأنت أيها الفقير كيف وصلت وفى حضرتنا حصلت؟ قال: هتف بى هاتف والله يدعو فاستغرقنى لذة الكلام فما أفقت إلا فى دار السلام بمنادى ادخلوها بسلام. ويا أيها العارف كيف عرفت سبيل المعارف قال سمعت منادى من «أتانى يمشى أتيته هرولة» فأخذنى شبه الوله فتنكرت للأغيار وما سكنت إلى قرار وطلبت الجار قبل الدار فمشيت إليه على أقدام صدق طلبى له فما حللت عنى إلا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

يا أيها الصوفى صف لنا صفوة حالك فى ارتحالك، فقال دعوة عينها فى سماع «أجيبوا داعى الله» فما استتمت قولى لبيك حتى قال لى: ها أنا ناظر إليك ومتجل عليك، ثم يقال يا أهل التخلف ما هذا التوقف اليوم يؤخذ بنواصى من عمل المعاصى فقدموا ما قدمتم، وقولوا لنا بأى وجه قد متم فيرتفع الصياح ويكثر النواح ثم يقولون: لإن فاتنا رفيق الصلاح فما لنا عن باب رحمتك من براح، ولا لنا غير حسن ظننا بك من سلاح، ولا لظلمة معاصينا غير نور عفوك من مصباح، فيأتيهم الجواب من باب السلاح ﴿لا تقنطوا من رحمة ا لله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾(٢).

---

(١) [سورة النحل: آية ٩٦].

(٢) [سورة الزمر: ٥٣].

يا قلب لا يودى بـك الخفقـان رضى الحبيب وواصل الغضبان

وصفت أو يقات السرور بوصلة فعليك فى حكم الهوى شكران

اليوم ينسخ بيننا من بيننا لا الصد نخشى لا ولا الهجران

تلك الصحايف بالعتاب قد انطوت لما محاها العفو والغفران

فلربما ينبو الزناد وربما يكبو الجواد وتعثر الفرسان

لا يبعدنك عتبنا بابنا فالعهد باق والوداد مصان

لا تكحلن بغير نور جمالنا إنسان عينك أيها الإنسان

فبلطفنا وبأنسنا وبوصلنا شاع الحديث وسارت الركبان

فإذا ذللت لعزنا ولهت لهيبتك الملوك وهابك السلطان

فاخضع وذل لمن تحب فإنه حكم الهوى أن تخضع الشجعان

يا أيها العشاق دونكم السباق فهذه الشقراء والميدان

فصــــل

[أطوار الأحوال]

فاعلم أنه ثبت بما أشرت إليه من أحوال القوم وانتقالهم من هذه الدار إلى تلك الدار إذ نحن ننتقل من أول خلقنا إلى أن يستقر بنا المنزل فى ستة أسفار.

(**السفر الأول**) سفر السلامة من الطين.

(**السفر الثانى**) سفر النطفة من الصلب إلى الرحم.

(**السفر الثالث**) سفر الولد من الرحم إلى الدنيا.

(**السفر الرابع**) السفر من الدنيا إلى القبر.

(**السفر الخامس**) السفر من القبر إلى الموقف والمعرض.

(**السفر السادس**) السفر من الموقف إلى إحدى المنزلين إما الجنة أو النار ثم يستقر بك، فعلمت أنك فى الدنيا عابر سبيل، فأما أهل اليقظة فشمروا حين سمعوا ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ** ﴾[1] فهم فى لذة ذلك السماع يشغلهم شوقهم ويقلقهم ذوقهم عن التمتع بالدنيا وزينتها همتهم فى مطلوبهم وراحتهم ذكر محبوبهم، فأبصارهم تتنزه فى ملكه وبصائرهم تجول فى ملكوته وسرائرهم تحوم حول حمى جبروته، لا يريدون إلا هو، ولا يطلبون إلا منه ولا يرضون إلا به ولا يسمعون إلا عنه ولا يشتاقون إلا إليه، إن ذكروه ناحوا وإن شكروه باحوا وإن وجدوه صاحوا وإن شهدوه استراحوا وإن سرحوا فى حضرة قربه ساحوا، فشهودهم له بلا حجاب ووصالهم له بلا انقطاع

---

(١) [سورة يونس: آية ٢٥].

وسكرهم به بلا صحو، قد استصحبت قلوبهم ودارت أحزانهم بلذة خطابه الأول في يوم ﴿ألست بربكم﴾ فصار ذلك كامنا في طوايا سرائرهم ومعاني صورهم، فإذا سمعوا مذكرًا أو منشدًا أو صائحًا أو نائحًا أو بائحًا استثار ذلك السر الكامن فيهم، فيذكرهم ذلك العهد الأول فتارة يثنوا وتارة يحنوا، فإذا غلبهم الوجد بغلبانه وشربوا من موارده وإرادته، فمنهم من طرقته طوارق الهيبة فجمد وذاب ومنهم من برقت له بوارق اللطف فتحرك وطاب، ومنهم من طلعت له طوالع الحب من مطالع القرب فسكر وغاب، فإذا رجعوا من وجدهم إلى وجودهم ناقشهم لسان الحال على تلك الأحوال، فقيل للصائح لمَ ضحت. وللنائح لم نحت، وللبائح لمَ بحت، ولمن تمزق لمَ مزقت، ولمن صفق لمَ صفقت، ولمن تحرك إلى من تشوقت، فقال الصائح كيف لا يصبح من قلبه في قبضة منتهبة ثم لا يدري ما يفعل به، وقال النائح كيف لا ينوح من الموت في طلبه وهو رهن منقلبه، فقال البائح ليس من هو في طربه كمن هو في حربه أما أنا فأبوح بما أوليت من وجود موجدى على وجود موجدى على وجودى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(١) قيل له فاضطرابك بنقر توقع الدف ونفخ الشبابة لماذا قال: تذكرت بنقرة الدفع ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾(٢) بنفخة الحادى ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾(٣) قبل: فلم صفقت قال: إشارة إلى نيل المطلوب والتقاء المحب والمحبوب قيل: فلم مزقت الأطمار قال: إشارة إلى تمزيق الحجب وظهور المحجوب ورفع الأستار وكشف

(١) [سورة الضحى: آية ١١].

(٢) [سورة المؤمنون: آية ١٠١].

(٣) [سورة ق: آية ٤١].

الغيوب، قيل فلم تحركت؟ قال: سمعت داعي الحبيب يقول هل من داع فأستجيب؟ فقمت أسعى على رأسي، وحق لمن دعاه مولاه أن يسعى على الرأس (وقلت) .

ما في التواجد إن حققت من حرج ولا التمايل إن أخلصت من بأس
إن السماع صفاء نور صفوته يخفى ويحجب عمن قلبه قاسي
نور لمن قلبه بالنور منشرح نار لمن صدره ناووس وسواس
راح وكاساتها الأرواح فهي على قدر الكؤوس تريك الصفو في الكأس
حاد يذكرك العهد القديم وإن تقادم العهد ما المشتاق كالناسي
فليس عار إذا غنى له طربًا يئن بالبأس لا يخشى من الناس

فصــل

[السماع]

واعلم أنه تحتم هاهنا ذكر السماع وما هو منه محظور وما هو مباح وما هو مستحب مستحسن، فإن كثيراً من المتعمقين والمتقشفين كرهوه وأنكروه أصلا وفرعًا وحقيقة وشرعًا، وهذا غلط منهم لأن ذلك يفضى إلى تخطئة كثير من أولياء الله وتفسيق كثير من العلماء إذ لا خلاف أنهم سمعوا الغناء وتواجدوا وأفضى إلى الصراخ والغشية والصعق، فكيف ينسب إليهم نقص وهم سالكون أتم الأحوال وإنما يحتاج ذلك إلى تفصيل ونظر فى أهل السماع واختلاف طبقاتهم، فمن صح فهمه وحسن قصده وصقلت الرياضة مرآة قلبه وحلت نسمات العزيمة فضاء سره وصفا من تصاعد أكدار أرض طبعه وبخار بشريته وخيالات مقابلة وسواسة وعرى عن حظوظ الشهوات وتطهر عن دنس الشبهات فلا تقول إن سماعه حرام وفعله ذلك خطأ قال أبو طالب المكى فقد طعنا على سبعين صديقاً.

وسئل الشبلى عن السماع فقال ظاهره فتنة وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارة حل له السماع والا فقد اسعدعى الفتنة وتعرض للبلية، ومعلوم أن السماع مهيج ما فى القلوب محرك لما فيها فلما كانت قلوب القوم معمورة بذكر الله تعالى صافية من كدر الشهوات محترقة بحب الله سبحانه وتعالى ليس فيها سوى الله فالشوق والهيجان والقلق والوجد والصيحان كامن فى قلوبهم ككمون النار فى الزناد فلا يظهر إلا بمصادمة ما يشاكلها، فمراد القوم فيما يسمعونه إنما هو مصادف ما فى قلوبهم فتستنيره بصدمة طروقه وقوة سلطانه، فتعجز القلوب عن الثبوت عند اصطلامه فتنبعث الجوارح بالحركات والصرخات والصعقات لثورانها فى القلوب لا إنه يحدث فيها شيئاً.

قال أبو قاسم الجنيد : السماع لا يحدث فى القلب شيئًا وإنما هو مهيج ما فيه، فتراهم يهيجون من حيث وجدهم وينطقون من حيث قصدهم ويتواجدون من حيث كامنات سرائرهم لا من حيث قول الشاعر ومراد القائل، ولا يلتفتون إلى الألفاظ لأن الفهم سبق إلى ما يتخيله الذهن وشاهد ذلك ما حكى أن أبا سليمان الصوفى سمع رجلا يطوف وينادى ياسعتر برى فسقط وغشى عليه فلما أفاق قيل له فى ذلك فقال : سمعته يقول اسع تر برى ألا ترى أن وجده وحركته من حيث ما هو فيه من وقته ووجده لا من حيث قول القائل ولا قصده وكما روى عن بعض الشيوخ أنه سمع قائلا يقول الخيار عشرة بحبة فما قيمة الأشرار بالمحترق بحب الله لا تمنعه الألفاظ الكثيفة فهم المعانى اللطيفة ولم يكن واقفًا مع صوت نعمة ولا مشاهدة صورة فمن ظن أن السماع يرجع إلى دفء المعنى وطيب النغمة فهو بعيد من السماع وإنما السماع، حقيقة ربانية ولطيفة روحانية تسرى من السميع المستمع إلى الأسرار بلطائف التحف والأنوار فتمحق من القلب ما لم يكن وتبقى فيه ما لم يزل، فهو سماع حق بحق من حق.

وأما الانزعاج الذى يلحق المتواجد فمن ضعف حاله عن تحمل الوارد وذلك لازدحام أنوار اللطائف فى دخول باب القلب، فيلحقه دهش فيغيب بجوارحه ويستريح إلى الصعقة والصرخة والشهقة لغلبة وجده قهر وارده وأكثر ما يكون ذلك لأهل البدايات، وأما أهل النهايات فالغالب عليهم فهم فى سكونهم متحركون وفى ثبوتهم متقلقون، كما قيل لأبى القاسم الجنيد ما لنا لا نراك تتحرك عند السماع، فقال : وترى الرجل يكون ساكنًا قبل السماع فإذا سمع اضطرب وتحرك فقال السماع تذكار خطاب الروح من الميثاق الأول

حين قال ربنا سبحانه ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾[1] شهدنا فستمع من سمع كلامه حين لا حد ولا رسم ولا صفة إلا المعنى الذى سمع فبقيت حلاوة ذلك السماع فيهم، فلما أخرجهم وردهم إلى الدنيا ظهر ذلك فيهم، فإذا سمعوا نغمة طيبة وقولا حسنًا طارت هممهم إلى ذلك الأصل، فسمعوا من الأصل وأشاروا إلى الأصل فالعارف هو الذى سمع من الله سبحانه وتعالي ومن لا يعرف الله كيف يسمع من الله ومن لا يسمع من الله سبحانه فالبهيمة خير منه قال الله عزّ وجلّ ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[2] وقال أبو عثمان المغربى من ادعى السماع ولم يسمع من صوت الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح فهو مفترٍ مدعٍ فالعارف يسمع ألطف الإشارات منى أكثف العبارات.

ودخل يومًا أبو عثمان المغربى وأخذ يسقى الماء من بئر وعليه بكرة فتواجد فقيل له فى ذلك فقال أنها تقول الله الله، وسمع على بن أبى طالب صوت ناقوس فقال لأصحابه: أتذرون ما يقول قالوا: لا، قال: أنه يقول: سبحان الله حقًا حقًا إن المولى صمد يبقى.

ومر الشبلى يومًا بفقاعى فسمعه يقول ما بقى إلا واحد، فصاح وقال وهل بقى إلا واحد وقيل لبعض مشايخ الطريقة لمن يصلح السماع؟ فقال: لمن لا يفرق بين صرير الباب والصوت الطيب.

(ولقد) قلت فى ذلك المعنى:

---

(١) [سورة الأعراف: آية ١٧٢].

(٢) [سورة الأعراف: آية ١٧٩].

ما استماعي من ضاربات المغُانى بل سماعى من واردات المعانى
خلوتى خمرتى وسكرى صحوى واستماعى منى بكل مكان
ليس فيما سمعت حرف وصوت لا ولا نغمة بدت عن قيان
كل من كان فى استماع ووجد واقفًا عند رنة العيدان
ذاك لا شك وجده مستعار مسترد على الحقيقة فاني
إنما الوجد فى الحقيقة وجد غير مستخرج من الألحان
فسماع القلوب من كل معنى متجل بصفوه للجنان
فاستمع ما يقول مر الليالى واعتبر ما يشير صرف الزمان
وتنصت لصادحات الفؤاد والبوادى وشاهدات العيان
وتلمح تر الحقيقة تبدو من خفايا الغيوب كالترجمان
تجد الكل إن تأملت فردًا واحدًا ليس فى الحقيقة ثان
فلهذا صرفت وجهى إليه ما ثنانى عن الطريقة ثانى
أنا لى مسمع إذا قلت سرًا يا حبيبى يقول ها أنا دانى
يا عذولى فخلنى وبلائى وهوائى ولو يكون هوانى
لا تلمنى إذا سكرت فحبى قد سقانى من صرف صافى الدنان
قط ما رمت شربة لظمئى بكؤوس الوصال إلاسقانى
لا ولا جئت طالبًا لحماه احتمى من جفاه إلا حمانى

واعلم أنه حضر السماع وسمع وما قنع بالسماع حتى كشف القناع وتواجد وتحرك كثير من الأكابر والمشايخ والتابعين رحمهم الله وسمع من الصحابة عند الله بن جعفر وعبد الله بن عمر، وكان عمر يرى إباحة السماع، وسمع من الصحابة ابن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم وممن قال بإباحته من السلف مالك بن أنس وأهل الحجاز أجمع يبيحون الغناء، وأما الحداء فأجمع الكل على إباحته وكان ابن جريج يرخص فى السماع فقيل له إذا أتى بك يوم القيامة ويأتى بحسناتك وسيئاتك ففى أى الجهتين سماعك فقال لا فى الحسنات ولا السيئات يعنى به فى المباحات.

وأما الإمام الشافعى رحمه الله فإنه لا يحرمه ويجعله فى العوام مكروهًا حتى لو جعل الغناء له حرفة وصناعة فترد به شهادته، ويجعله مما يسقط المروءة ولا يلحقه بالمحرمات، وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا إذا كان فيها سماع، وقال ابو يونس بن عبد الأعلى سألت الشافعى رحمه الله عن إباحة أهل المدينة السماع فقال: لا أعلم أحدًا من علماء أهل الحجاز ذكر السماع إلا ما كان فى أوصافه، وأما الحداء وذكر الأطلال والمرابع وتحسين الصوت وتلحين الأشعار فلا أراه إلا مباحًا، وكان أبو صروان القاضى عنده جوار يسمعن التلحين قد أعدهن للصوفية وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما، وكان أبو الحسن العسقلاني يسمع زيتوله فى السماع وصنف فيه كتابًا رد فيه على منكريه وحكى عن بعض المشايخ أنه قال: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له ما تقول فى هذا السماع الذى أختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفو الزلال الذى لا يثبت فيه إلا أقدام العلماء.

وحكى عن ممشاذ الدينورى قال رأيت النبى ﷺ فى النوم فقلت: يا

رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئًا؟ قال: لا ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن، فقلت: يا رسول الله انهم يؤذوننى وينشطون، فقال: احتملهم يا أبا على هم أصحابك فكان ممشاد يفتخر بها ويقول: كنانى رسول الله ﷺ.

وروى طاهر بن بلبل الهمدانى الوراق وكان من أهل العلم والفضل قال: كنت معتكفًا فى جامع جدة على البحر فرأيت يومًا طائفة يقولون فى جانب منه قولا ويسمعون فانكرت ذلك بقلبى وقلت فى بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر، قال فرأيت النبى ﷺ فى تلك الليلة وهو جالس فى تلك الناحية وإلى جانبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو يقول شيئًا من القول والنبي يسمع منه ويضع يده على صدره كالواجد فقلت فى نفسى ما كان ينبغى أن أنكر على أولئك القوم الذى كانوا يسمعون وهذا رسول الله ﷺ يسمع وإلى جانبه أبو بكر يقول فالتفت إلى النبى ﷺ وقال: هذا حق بحق، أو قال حق من حق، شك الراوى فى ذلك(1).

وقد روى أبو طالب المكى فى كتابه بإسناده أن رجلا دخل على النبى ﷺ وعنده قوم يقرءون القرآن وقوم ينشدون الشعر، فقال: يا رسول الله قرآن وشعر فقال: من هذا مرة ومن هذا مرة وقد روى القشيرى فى رسالته عن جابر بن عبد الله الأنصارى عن عائشة رضى الله عنها أنها أنكحت ذات قرابتها من الأنصار فجاء النبى ﷺ فقال أهديتم الفتاة فقالت نعم قال فأرسلت من يغنى قالت لا فقال ﷺ أن الأنصار فيهم غزل ولو أرسلتم من يقول أتيناكم فحيانا وحياكم، وروى أيضًا بإسناده أن رجلاً أنشد بين يدى النبى ﷺ فقال:

---

(1) هذه الأحلام: والمنامات لا يؤخذ منها أحكام، إنما الأحكام تؤخذ من أدلتها من الكتاب والسنة.

أقبلت فلاح لها عارضان كالسبج
أدبرت فقلت لها والفؤاد في وهج
هل عليّ ويحكما إن عشقت من حرج

فقال رسول الله ﷺ لا حرج إن شاء الله تعالى.

وروى أن السماع إنما هو عبارة عن الأصوات الحسنة والنغمات المطربة يصدر عنها كلام موزون مفهوم، فالوصف الأهم فى السماع إنما هوالصوت الحسن والنغمة، وهو منقسم إلى قسمين، مفهوم كالأشعار، وغير مفهوم كأصوات الجمادات، وهى المزامير كالشبابة وغيرها من أصوات الطير والمطربة، ولا قائل بتحريم الصوت الطيب المطرب من حيث هو صوت إلا ما جاء النص فى تحريم سماعه كالأوتار والملاهى، وأما الصوت الطيب بالشعر الموزون المفهوم فقد صحت الأخبار وتواترت الآثار بالأصوات الطيبة بين يدى رسول الله ﷺ، وكان يصنع لحسان منبراً بالمسجد يقوم عليه يفاخر عن رسول الله ﷺ.

وقالت عائشة كان أصحاب رسول الله ﷺ يتناشدون الأشعار وهو يبتسم ولما أنشده النابغة شعره قال لا يفض الله فاك، وأنشد رسول الله ﷺ مائة قافيه من قول أمية بن أبى الصلت يقول فى كل ذلك هيه هيه، ثم قال: انه كاد فى شعره ليسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان يحدى بالرجال فقال ﷺ يا أنجشة رويدك سوقا بالقوارير، ولا يجوز أن يكون الصوت الطيب بالشعر الموزون والمعنى المفهوم حراماً إذا لأصوات الطيبة غير منكرة ولا محدثة وقد ثبت ذلك بالنص والقياس.

فصـــل

[حكم الدف والرقص]

وأما الضرب بالدف والرقص فقد جاءت الرخص فى إباحته للفرح والسرور فى أيام الأعياد والعرس وقدوم الغائب والوليمة والعقيقة وقد ثبت جواز ذلك بالنص فمنّ ذلك انشادهم وضربهم بالدف عند قدوم النبى ﷺ وقولهم :

طلع البدر علينا   من ثنيات الودع
وجب الشكر علينا   ما دعى لله داعى

فاضفت إلى البيتين أبياتًا آخر وهى

قم فقد طاب سماعى   أو فدعنى واستماعى
ما يطيب الوقت إلا   لخليع كانخلاعى
أنا عبد لحبيب   سره غير مذاع
أنا راض فى هواه   بهوان واتضاعى
قم فهات الراح صرفا   واسقنيها لانتفاعى
قد رضعناها قديما   قبل أيام الرضاع
عن يدى ساق تجلى   وهو للعشاق داعى
ومغنى الوقت غنى   لك فى خير البقاع
طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعى لله داعى

(فأباح) لهم ذلك لإظهار السرور بقدومه ﷺ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى ومسلم عن عروة عن عائشة رضى الله عنها، «أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى يدففان ويضربان والنبى ﷺ متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه وقال دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»[1] وفى حديث آخر قالت عائشة رضى الله عنها: «دخل على رسول الله ﷺ وعندى جاريتان يتغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه ودخل أبو بكر فانتهرنى وقال مزمارة الشيطان عند رسول الله ﷺ فأقبل عليه وقال دعهما فلما اغفل غمزتهما فخرجتا» «وكان يوم عيد يلعبون فيه السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال أتشتهين تنظرين فقلت نعم فأقامنى وراءه وخدى على خده ويقول دونكم يا بنى أرفدة حتى إذا مللت قال حسبك قلت نعم قال فاذهبى»[2] فهذه الأحاديث نص صريح فى الصحيح على أن الغناء واللعب بالدرق ليس بحرام ويدل أيضًا على كثير من الرخص منها اللعب وإباحة ذلك فى المسجد ووقوفه مع عائشة حتى ملت مع صغر سنها وإنكاره على أبى بكر ومنعه له من انتهار الجاريتين وكان يقرع سمع رسول الله ﷺ صوت الدف وصوت الجاريتين، فلو كان بموضع يضرب فيه الأوتار لما جوز الجلوس فيه، وفيه دليل على أن صوت النساء أخف تحريمًا من صوت الأوتار والمزامير، فأما صوت الشبابة فاستدل أهل التحريم بحديث نافع عن ابن عمر حين وضع أصبعه فى أذنيه وقد سمع زمارة راع فعدل عن الطريق ولم يزل يقول يا نافع أتسمع حتى قال: لا فأخرج أصبعه من أذنيه، وقال هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع، فهذا ليس فيه دلالة على التحريم بل فيه دليل قوى على إباحة الشبابة بدليل أنه لم يأمر نافعًا بسد

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري.

أذنيه ولم ينكر على الراعي وكذلك فعله ﷺ لا يدل على التحريم لأنه لم يأمر عبد الله بسد أذنيه ولم ينكر على الراعي، في فعله وحاشا رسول الله ﷺ أن يمر بمنكر ولم ينكره أو بباطل ولم يبطله إذ لم يعرف الحلال والحرام إلا من جهته ولو كان حرامًا لأخبر به أصحابه وأما سده أذنيه ﷺ فيحتمل معنيين.

(أحدهما) أنه سالك أتم الأحوال وأفضلها ونحن نقول أن الأولى تركه في أكثر الأحوال بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها.

(الثاني) أنه ﷺ قل ما يخلو قلبه من فكر أو ذكر وحال مع الله تعالي واشتغاله به فلعله كان في حالة تشغله زمارة الراعي عن هذه الحالة لتأثيرها في القلب، كما أنه خلع ثوب أبي جهم بعد الفراغ من الصلاة لأنه كان ﷺ شغلته عن حالته ووقته، فلا نقول إن ذلك يدل على تحريم إعلام الثوب بل إنه ليستشعر إنما شغلت قلبه فخلعها، فكذلك سد أذنيه.

وأما احتجاجهم بقول ابن مسعود رضي الله عنه الغناء ينبت في القلب النفاق كما ينبت الماء البق ويقول الفضيل الغناء رقية الزناء، وبقوله ﷺ ما رفع أحد صوته بالغناء إلا بعث الله إليه شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك، وقول عثمان منذ أسلمت ما تغنيت ولا تمنيت ولا لمست ذكرى بيميني منذ بايعت رسول ﷺ، وبقوله ﷺ كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى وقوله عائشة رضي الله عنها: إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها وبقوله تعالى ﴿**أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ**﴾(1) الآية قال ابن عباس هو الغناء بلغة حمير فيلزم من هذا إذا قلنا بتحريمه أن يحرم الضحك أيضًا وعدم البكاء قياسًا، ويحرم في حديث عثمان

---

(1) [سورة النجم: آية ٥٩، ٦٠].

مس الذكر باليمين قياسًا أيضًا ويلزم من هذه الأحاديث كلها إذ قلنا باطلاق التحريم فيها أن يكون رسول الله ﷺ فعل حرامًا أو أمر بحرام أو رضى حرامًا ومن ظن ذلك بنبيه فقد كفر.

وقد ثبتت النصوص بالغناء فى بيته وضرب الدف فى حضرته ورقص الحوش فى مسجده، وإنشاد الشعر بالأصوات الطيبة بين يديه، فلا يجوز أن نقول بتحريم الغناء واستماعه وإباحته على الإطلاق، بل يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص وأرباب الرياء والإخلاص، فنقول إن السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

منها ما هو حرام محض وهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذانهم وملكهم حب الدنيا وتكدرت بواطنهم وفسدت مقاصدهم فلا يحرم السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم وعلي قلوبهم من الصفات الذميمة سيما فى زماننا هذا وتكدر أحوالنا وفساد أعمالنا[1].

وقد روى الجنيد أنه ترك السماع فى آخر أمره فقيل له كنت تسمع أفلا تسمع فقال مع من فقيل له تسمع أنت لنفسك فقال مِنَ من فالسماع لا يحسن إلا بأهله ومع أهله ومن أهله إذا انعدم أهله واندرس محله فيجب على العارف تركه.

والقسم الثانى منه مباح وهو لمن لاحظّ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح أو يتذكر غائبًا أو ميتًا فيثير حزنه فيروح بما يسمعه.

والقسم الثالث منه مندوب وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى والشوق

---

(١) هذا ما يقوله المصنف رحمه الله عن زمانهم، فماذا هو قائل لو رأى ما يحدث في هذا الزمان من عرى الأجساد وفحش الكلام ممن أفسدوا على الناس حياتهم.

إليه فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة وتضاعف الشوق إلى الله سبحانه واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية والكرامات السنية والمواهب الألهية.

ومجمل القول فى ذلك أن من سمع فظهرت عليه صفات نفسه وتذكر به حظوظ دنياه فاستثار بسماعه وسواس هواه فالسماع عليه حرام محض، ومن سمع فظهر له ذكر ربه وخوفه من ذنبه وذكر آخرته فأتيح له ذلك الذكر شوقًا إلى الله تعالى وحبًا فيه ورجاء لوعده وخوفًا من وعيده فسماعه ذكر من الأذكار، مكتوب فى صحائف الأبرار.

ولقد أشرت إلى هذا المعنى فى هذه الأبيات:

إذا ما كنت مستمعًا لقول ... فبالقلب استمع من قبل أذن
وألق السمع تشهد كل معنى ... وتسمع فى شهودك كل فن
ومن يك وجده وجدًا صحيحًا ... فلم يحتج إلى قول المغنى
له من ذاته طرب قديم ... وسكر دائم من غير دن
فدعنى من تغزل قيس ليلى ... ومن أبيات شعر جميل بثنى
فبى شغف عن الأشعار يلهى ... وبى طرب عن الأوتار يغنى
وفى إياى كل لطيف معنى ... فمنى إن سمعت سمعت عنى
وما وجدى بمنقطع ولكن ... بحيث يكون محبوبى تجدنى
فإن لم تدرك المعنى وتدرى ... خفايا ما أقول فلا تلمنى
ومن حضر السماع بغير قلب ... ولم يطرب فلا يلم المغنى
وإن تك يا عذول جهلت أمرى ... فدع عنك الملام وخل عنى

أغنى باسم حبى لا أكنى وإن أك قد كنيت فذاك أعنى

وراحى إن شربت فصفو ودى وزادى إن قصدت فحسن ظنى

ولا أبغى النعيم ولست أرضى نعيمًا لا ولا جنات عدن

وما نفعى بدار لست فيها وأنت القصد يا أقصى التمنى

فصــــل

[علم الصحابة وعلم الصوفية]

واعلم أن القلوب أوعيـة والآذان أوكـيـة والنغـمـات أشـربة مـروية لأن الأصوات جـمـال تحمل ا لنغمات من الأغانى إلى الأوانى، ولولا صفـو الأوانى ما راقت المعانى ولولا صحة المعانى ما طابت الأوانى، فإذا وصلت الأشربة إلى أوانيها فإذا كانت صافية صفته ولطفته وإن كانت كدرة كثفته وخبثته.

ولقد قلت هذه الأبيات:

مـا حيلة السـاقى إذا طاف على نـدمـانـه بالخـمـرة المحللـه
فـواحـد قـد زادهـا بصـفـوه صـفـوا وهـذا ردهـا مـخلله
قلـوبنـا أوعيـة فكلمـا طاب الوعى قد طاب ما قد حل له
قلب بذكر الله أضحى روضة وآخـر باللهـو صـار مـزبلـة
مـا نبت الورد كـمنبت غيـره ولا شـذا المسك كـريح البـصـله
ولو سقى الحنظل شهـداً دائمًا ما أنبـت الحـنظل إلا حنـظلـه

واعلم أن الخلق كلهم أطفال فى حجر تربية الحق سبحانه يغذى كل واحد من خلفه على قدر احتمال معرفته، فغذاء الرجال لا يصلح للأطفال، ومراكب الأبطال لا تصلح للبطال، ألا ترى أن الطفل لما لم يطق تناول الخبز واللحم وأطعمته حاضنته فوصل إليه بواسطة اللبن ولو أطعم ذلك مجرداً لمات، ومن ههنا يقال من لا شيخ له لا قبلة له ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه، وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما كان طفلا فى حجر تربية النبى ﷺ كان يلقمه مما كان يلقمه من لقم الغيب بواسطة قوله ما صب الله فى صدرى

شيئًا إلا صببته فى صدر أبى بكر، فما أطاق تناول ذلك الغذاء إلا بواسطة رسول الله ﷺ ومن هذه أيضًا قوله أنا مدينة العلم وعلىّ بابها لم يكن على يحتمل ما تحتمله المدينة وإنما كان بمنزلة الباب من المدينة فلا يخرج من المدينة شىء حتى يمر بالباب، ومن سر هذا الكشف كان على كرم الله وجهه يقول لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا، معناه لو كشف غطاء المخلوقات حتى أشاهدها بعين البصر ما ازددت يقينًا على ما شهدت به عين البصيرة مما ورثته من علم الأولين والآخرين عن سيد الأولين والآخرين، فما زراد كشف الغطاء إلا عن المخلوقات لا عن الخالق، فإن الخالق لا يوصف بذلك، فإذا كنت طفلاً فى حجر عاداتك محصوراً بقماط مألوفانك فلا تتطاول إلى تناول طعام الرجال، فإن طعام الأصحاء يضر بذرى الاعتدال، وإشراق الشمس المنيرة يضر بذوى الأبصار الضعيفة.

وقال رسول الله ﷺ: «لا تودعوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوا أهلها فتظلموهم فما كل قلب يصلح للسر ولا كل صدف ينطبق على الدر» ولكل مقام مقال ولا كل ما يعلم يقال: قال قائل لأبى يزيد ما لنا لا نفهم كثيراً مما تقول؟ قال: لأن كلام الأخرس لا يفهمه إلا أبواه.

قلت:

وإذا كنت بالمدراك غراً ثم أبصرت حاذقا لا تمارى
وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالإبصار

هذا ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يقول: إنى لأعلم فى قوله تعالى يتنزل الأمر بينهن علما لو أبحت به لكفرتمونى، وهذا أبو هريرة رضي الله عنه يقول أخذت عن رسول الله ﷺ جرابين من العلم جرابًا ألقيته إليكم

وجرابًا لو أبديته لكم لرجمتموني، وهذا على بن أبى طالب يقول إن بين جنبى علما لو قلته لخضبتم هذه من هذه وبقول أيضا رضي الله عنه (شعر) :

إنى لأعلم علم لو أبوح به   لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا

ولاستباح رجال مسلمون دمى   وكان أقبح ما يأتونه حسناً

فأما أهل التمكين فإنهم علموا وكتموا ما علموا لما يعلمون من ضعف احتمال عقول أطفال العقول، فلهذا أن الحلاج لما علم شيئًا من هذا العلم وتفوه به فمه أبيح دمه وكان خطؤه من حيث إظهاره ما يكتم وإعلانه بما يسر، فكان حكم من باح أن ذمه يباح، وقد روى أنه لما أتى به ليصلب فرأى الخشب والمسامير فضحك ضحكًا كثيراً، ثم نظر فى الجماعة فرأى الشبلى فقال: يا أبا بكر أمعك سجادة قال: بلى قال فافرشها لى ففرشها فتقدم وصلى فقرأ فى الأولى الفاتحة وبعدها ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ الآية ثم ذكر أشياء فكان ما حفظ عنه اللهم بحق قيامك بحقى وبحق قيامى بحقك، وقيامى بحقك يخالف قيامك بحقى، لأن قيامى بحقك ناسوتية وقيامك بحقى لاهوتية، مع ان ناسوتيتى مستهلكة فى لاهوتينك غير ممازجة إياها ولا هوتينك مستولية على ناسوتيتى غير مماثلة لها، أسألك أن توفقنى لشكر هذه النعمة التي أنعمت بها على حيث كشفت لى عن مطالع وجهك وحرمت على غيرى ما أبحت لى من النظر فى مكونات سرك، وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصبًا لدينك وتقربًا إليك فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى ما فعلوا، ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد، ثم تقدم أبو الحارث السياف ولطمه لطمة هشم وجهه وأنفه فصاح الشبلى ومزق جبته وغشى عليه وعلى أبى الحسن الواسى وجماعة من المشايخ المشهورين.

وقال عبد الكريم بن عبد الواحد دخلت على الحسين بن منصور في مسجد وحوله جماعة فكان أول ما قاله في كلامه: لو يلقى مما في بطني ذرة على جبال لذابت، وإني لو كنت يوم القيامة في النار لأحرقت النار، ولو كنت في الجنة لهدمتها، ودخل يومًا إلى جامع المنصور ببغداد وقال: يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا مني حديثًا فاجتمع عليه خلق كثير منهم محب ومنكر، فقال: اعلموا أن الله قد أباح لكم دمي فاقتلوني فبكى القوم فتقدم إليه عبد الودود بن سعد الزاهد وقال يا شيخ كيف نقتل رجلا يصلي ويصوم ويقرأ القرآن؟ فقال يا شيخ المعنى الذى يحقن الدماء خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القرآن فاقتلوني تؤجروا وأستريح فتكونوا أنتم مجاهدين وأنا شهيد، ثم ذهب فتبعته إلى داره وقلت يا شيخ ما معنى هذا قال يا بني ليس للمسلمين شغل أهم من قتلي، فاعلم أن قتلي قيام بالحدود ووقوف مع الشريعة فإن من تجاوز الحدود أقيمت عليه الحدود.

في معنى ذلك أقول:

أباح دمي إذا باح قلبي بحبها ... وحل لها في حكمها ما استجلت

وما كنت ممن يظهر السر إنما ... عروس هواها في ضميري تجلت

وشاهدتها فاستغرقني فكرة ... فغبت بها عن كل كلي وجملتي

وحلت محل الكل مني بكلها ... فإياي إياها إذا ما تبدت

وألقت على سري أشعة نورها ... فلاح لجلاسي خفايا طويتي

ونمت على سري فكانت هي التي ... عليها بها بين البرية نمت

إذا سألت من أنت قلت لها أنا ... وأنت التي أفنيت فيك هويتي

أنا الحق في عشقي كما أن سيدي ... هو الحق في حسن بغير معية

فإن أك من سكرى شطحت فإننى حكمت بتمزيق الفؤاد المفتت
فلا غرو أن أصليت نار تحرقى ونار الهوى للعاشقين أعدت
ومن عجبى أن الذين أحبهم وقد علقت أيدى الهوى بأعنتى
سقونى وقالوا لا تغنى ولو سقوا جبال حنين ما سقونى لغنت
تمنت سليمى أن أموت صبابة وأهون شىء عندنا ما تمنت

(فنادى) لسان حاله يا حلاج كيف رأيت المحبة؟ قال : رأيت حبة قد نصبت على فخ جمالية المحبوب فطارت إليها عصافير القلوب، فلما سقطوا ليلتفطوا انقلبت عليهم حبة الفخ فاختبطوا فحدقوا إلى حقيقة تلك الحبة فإذا هى نقطة باء المحبة قد قلبتها الفتنة فانقلبت المحبة محنة، يا حلاج فأنت تحت رقه تحترق وبحبل عشقه تختنق، فمتى تتفرغ من الخنق حتى تقول أنا الحق فلو كان لك فى البقائية ما شربت كأس الأنية، فقال يا قوم لما أخذنى منى وسلبنى عنى تلاشت أوصاف حدثنى لما ظهر سلطان قدمه، فكان الحدث كأن لم يكن وبقى القدم كأن لم يزل، ثم فنيت أنيتى فى أنيته، وذهبت هويتى، فى هويته وتلاشت ناسوتيتى فى لاهوتيته، ثم نظرت منه إليه فلم أر إلا هو، فقلت أنا هو، ولئن قلت أنا الحق فماعدلت عن الحق لأنى أنا الحق فى محبته وهو الحق فى مملكته، ولئن كان سكرى نم على سرى فقد عربد وجدى على وجودى وجعل حدى محو حدودى (وقلت)

اقتلونى يا سقائى إن فى قتلى حياتى
فمماتى فى حياتى وحياتى فى مماتى

أنا عندى محو ذاتى ... من أجل المكرمات
وبقائى فى صفاتى ... من قبيح السيئات
سئمت نفسى حياتى ... فى الرسوم الفانيات
فاقتلونى واحرقونى ... بعظامى الباليات
ثم مروا برفاتى ... فى القبور الدارسات
تجدوا سر حبيبى ... فى طوايا الباقيات

(يا حلاج) أنت شربت بين ندمان لا يحتملون عربدتك وقد صنعنا لك دعوة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ففارق ووافق فثم ندمان: يتنازعون فيها كأسًا لا لغو فيها ولا تأثيم ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[1] سماعهم ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴾[2] مشاهدتهم ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3].

فقتلوه وصلبوه ... وما قلتوه وما صلبوه
ولكن غار عليه ... أحبابه فغيبوه
هيهات ما قتلوه ... كلاً ولا صلبوه
لكنهم حين غاروا ... عن وجده شبهوه
سقوه صرفا وراموا ... كتمان ما أودعوه
فما أطاق ثبوتًا ... لثقل ما حملوه

(١) [سورة الإنسان: آية ٢١].
(٢) [سورة الواقعة: آية ٢٥].
(٣) [سورة القيامة: آية ٢٢، ٢٣].

فـــتـــاه سكراً ونـادى أنـا الذى تعـــرفـــوه

يا لائمى كـــيف أخـــفى فى الحب مـــا أظهـــروه

أم كـــيف يكتـــم قلـــب بالشـــوق قـــد مـزقـــوه

فصـــل

[صفاء الأحوال]

واعلم أن الأجساد تنمو بنماء الأقوات كذلك الأحوال تصفو بصفاء الأوقات فقوت جسدك ما عودته من الطيبات، وقوت روحك ما ربيته من أقوات الطاعات فى أوقات الخلوات، وكلما صفت حكت ما فيها من جوهر المعانى فإذا كانت عين نظرتك منطمسة، ومنابع فكرتك مندمسة، ومعالم علومك مندرسة وأعلام عزيمتك منتكسة، وخيول همتك عن اللحاق بالقوم محتبسة فما بالك والتطاول إلى منازل قوم عيون قلوبهم بالحكم منبجسة، وسرائرهم لأنوار معارفهم من جذوة الغيب مقتبسة، فلا تدع ما ليس فيك ولا تتمدغ بغيك بما ليس فيك، فحسبك ما يعلمه الله فيك ويكفيك فينبغى لك أن تقف موقف الأصاغر وتتأدب بآداب الأكابر، هذا موسى كليم الله عليه السلام لما كان طفلاً فى حجر تربية الحق سبحانه ما تجاوز حده ولا تعدى قصده بل قال ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(١) فلما كبر وترعرع وبلغ مبلغ الرجالِ ما رضى بطعام الأطفال بل قال ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾(٢) فكان غاية طلبه فى طفولية بدايته طعام وشراب، وكان منتهى أربه فى رجولية نهايته رفع الحجاب ومشاهدة الأحباب، فإذا تأدبت بهذه الآداب تيسرت لك الأسباب وفتحت لك الأبواب، وإذا وجدت من وجد ما لم تكن واجداً وشهدت ما لم تكن مشاهداً ورأيت من ورد ما لم تكن وارداً وسمعت بأرباب الأحوال والوارد فلا تكن لآيات ربك جاحداً ولا فى تأويلها لاحداً واسأل من أعطاهم أن يعطيك فإن مولاك ومولاهم واحد وقد أشرت فى هذه الأبيات إلى ما يهدى كل قاصد :

---

(١) [سورة القصص : آية ٢٤].

(٢) [سورة الأعراف : آية ١٤٣].

أهدى إلى الشذا من عرفه خبرا فـهـمـت بالسـر لما أن إلى سـرى
وطبت بين أصيحابى وما علموا ما قد جرا من حديث العشق كيف جرا
تعجب الناس من سكرى ولو شربوا بكأس شـربى لما لامـوا لمن سكرا
فى خمرة العشق معنى ليس يعرفه إلا فـتى مـزق الأطهار واشتـهـرا
عندى رمـوز كنوز ليس يدركـهـا من أمـة العشق إلا من قـرا ودرى
فاشرب بكأس صفاء قد شربت بها وانظر ترى علم العرفان قد ظهرا
دع من سعى ودعا أو حج معتمرا ومن أتى البيت والأركان والحجرا
ولذ بحانة ذكرى واجتلى قدحى فى صفو حالى ودع من صدأ وهجرا
طف حول كعبة قلبى إن عزمت على عرفات معرفتى إن كنت مقتدرا
فامح العلوم ولا تبقى الرسوم ولا تنظـر لإياك لا عــيـنًا ولا أثرا
وغب عن الأسم تشهد عند غيبته ذاك المسمى فمنك السمع والبصرا
هناك تشـهـد أهل العشق كلهم فى حومة الحب فى حكم الهوى أسرى

فيا أيها الغائب عن حضرة الحبائب لو طلبت ما طلبوا وجدت ما وجدوا وإن وردت ما وردوا اشهدت ما شهدوا، فالباب مفتوح للطلاب لا حاجب عليه ولا بواب، وإنما المحجوب عن السبب من وقف مع الأسباب، وعلى قدر الطالب يرد الجواب، فالمشروب حاضر والمحروم من حرم الشراب، والمحبوب ناظر والمطرود من وقف من وراء الحجاب، فمن أنس بمن سواه فهو مستوحش منه، ومن ذكر غيره فهو غافل عنه، ومن عول على سواه فهو مشرك به، فإذا لم تجد إليه سبيلا ولا فى ظله مقيلاً ثم رأيت من أولاه الله جميلاً وأعطاه جزيلاً

واتخذه صفيًا أو خليلاً، فألقى عليه من أسرار معرفته قولا ثقيلاً، وباح بما لم يقم لك عليه دليلا : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[1] فأحسن الناس من أسلم وأسلمهم من سلم وأحبهم إلى الله من استسلم ذلك خير وأحسن تأويلاً. ولقد أنصف أبو حامد الغزالى رحمه الله حيث أجرى ذكر هذه الطائفة من الرجال فى كتابه المنعوت باحياء علوم الدين فقال عند ذكرهم هؤلاء قوم غلبت عليهم الأحوال حتى قال الواحد سبحانى، وقال الآخر ما أعظم شأنى، وقال الآخر أنا الله وقال الآخر ما فى الجبة إلا الله فهؤلاء قوم سكارى، ومجالس السكارى تطوى ولا تحكى ومعناه تسلم إليهم أحوالهم ولا ترد عليهم أقوالهم، لأن كلامهم نطق عن ذوق وذوق عن شوق فمن ذاق عرف، ومن لم يذق لا حرج عليه إذا سلم واعترف.

(١) [سورة الإسراء: آية ٣٦].

فصــــل

[في الكرامات]

واعلم أن طائفة ممن عدموا العقل وخالفوا النقل، عدلوا عن الحق وصدوه وعمدوا إلى هذا الباب فسدوه، وقالوا بابطال كرامات الأولياء ومكاشفات الأصفياء كالمعتزلة باعتزالهم ومن وافقهم على ضلالهم، وقالوا لا تكون هذه الكرامات والمعجزات إلا للأنبياء عليهم السلام، ومن ادعى ذلك سواهم فهو محال ويكذبهم فيما أنكروه وجحدوه العقل والنقل.

فأما العقل فمن وجهين: أحدهما أنه لا معنى للكرامة إلا ما يكشفه الله تعالى لعبده ويطلعه عليه من حقائق الأشياء وهذا من مقدور الله تعالى داخل تحت مشيئته فيجب وصف الله تعالى به وبالقدرة على إيجاده، فكيف يستحيل وجوده مع قدرة الله تعالى عليه، وكما أنه لا معنى للنبى إلا أنه عبد اختصه واطلعه على غيبة وكاشفه بحقائق الأشياء، كذلك الولى عبد كاشفه الله تعالى بما شاء من غيبه ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو فى حق النبى معجزة وفى حق الولى كرامة ثم أنها ملحقة بمعجزات نبيه منسوبة إليه، لأن الكرامة لا تظهر إلا على من صدق في إيمانه وإسلامه، وإيمانه وإسلامه مستفاد من ذلك النبى ومن بركته فكلما ظهر على هذا الولى كرامة كانت ملحقة بمعجزة نبيه، ولا يكون فى رتبة النبوة.

والفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة يدعيها النبى لنفسه ويستدعيها متى أراد، والكرامة لا يدعيها الولى لنفسه ولا هى بحكمه بحيث لا يستدعيها متى أراد، بل تارة تظهر اختياراً وتارة تظهر عليه اضطراراً وتارة لا تظهر، وليس من شرط الولى أن تكون له كرامة ولا يؤثر ذلك فى ولايته، ولا كذلك النبى فإنه يجب أن يكون له معجزة لأن الرسل والأنبياء عليهم السلام بعثوا حجة على الناس يدعونهم إلى الله تعالى فلا بد لهم من المعجزة لإقامة البرهان.

وقد سئل أبو يزيد رحمة الله عليه عن هذه المسئلة فقال مثل ما حصل لسائر الأنبياء عليهم السلام كمثل زق فيه عسل يترشح منه قطرة فمثل قطرة مثل ما حصل لسائر الأنبياء عليهم السلام وما فى الزق مثل ما حصل لنبينا محمد ﷺ ثم الخلائق مفتقرون إلى ظهور معجزة النبى لأنه مبعوث إليهم ليصدقوه وأما الولى فلا يفتقر إلى ذلك ولا يبالى صدقوه أو كذبوه.

وقد اختلف أهل العلم فى الولى، هل من شرطه أن يعلم أنه ولى، فكان الإمام أبو بكر بن فورك يقول لا يجوز أن يعلم أنه ولى لأن ذلك يسلبه الخوف ويوجب له الأمن، وأما الذى يؤثره أهل التحقيق وهو الحق أنه يجوز وليس بواجب أنه ولي كانت له كرامة فى حقه إذا أطلعه الله على ما وهبه وكشف له ما كان حجبه، ومن قال إن ذلك يسلبه الخوف فهذا ضعيف لأن من كان بالله أعرف كان من الله أخوف، فمن عرفه الله نفسه اشتدت مهابته وتعظيمه لله سبحانه وتلك الهيبة من معروفه تزيد على أضعاف من مخافات الخائفين ومن شرط الولى وإن علم نفسه أنه ولى أن يستصحب الخوف ولا يفارقه ولا يمكن إلى تلك الكرامات ولا يلاحظها ولا يساكنها بقلبه مخافة أن يكون ذلك استدراجًا فهو فى سائر حالاته يكون خائفًا واجبًا.

قال السرى السقطى رحمة الله عليه لو أن رجلاً دخل بستانًا فيه أشجار كثيرة على كل شجرة طائر يقول له بلسان فصيح السلام عليك يا ولى الله لو لم يخف أنه منكر فمكور به.

وأما الوجه الثانى من العقل فهو عجائب مما يراه النائم من عجائب الرؤيا الصادقة والكشوفات الخارقة وذلك بمشاهدة روحه للملكوتيات الغيبيات ثم يظهر صدق ذلك فى اليقظة ولا معنى للرؤية إلا ركوز الحواس وخمودها وخنوسها عن الإحساس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكان الولى إذا قمع نفسه

عن الشهوات ضعفت قوى الحواس حتى صارت كالمعدومة لأنها هى التى تشغل عن الإطلاع للملكوتيات المغنية لأن الروح من هناك أفيضت وفى هذه الهياكل حبست، فإذا ضعفت القوى النفسانية الجثمانية قويت القوى الروحانية النورانية، فتصفو الروح وتتلطف النفس بالرياضيات فيشاهد فى اليقظة ما تشاهده أنت فى نومك عند خمود إحساسك، وكم من مستيقظ لا يبصر من يحاذيه ولا يسمع من يناديه، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون فإن قال قائل هل يجوز أن يكون الولى معصومًا أم لا فنقول لا يجب أن يكون معصومًا لأن العصمة للأنبياء عليهم السلام، وأما الأولياء رضى الله عنهم فجائز أن تبدو منهم الهفوات والزلات، وإنما من الجائز أن يكون محفوظًا من الإصرار على الأوزار ولا يمتنع أن تبدو منه زلة.

وقد سئل الجنيد عن العارف هل يزنى فأطرق مليًا ثم رفع رأسه وقال وكان أمر الله قدراً مقدوراً. واعلم أن أجل الكرامات التى تكون للأولياء عليهم السلام دوام التوفيق للطاعات والعصمة عن المعاصى والمخالفات،وأما ما يكذبهم من النقل فكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، أما الكتاب ما أظهره الله تعالى من الكرامة فى قصة مريم عليها السلام وليست بنبى فى قصتها مع زكريا فى قوله تعالى: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا** ﴾(1) الآية فهذه كرامة ظاهرة وكذلك قصتها فى النخلة ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ** ﴾(2) وكذلك قصة أهل الكهف وما ظهر من عجائب كلام الكلب ومن قصة الخضر عليه السلام وليس بنبى مع موسى عليه السلام ومافيها من

---

(١) [سورة آل عمران: آية ٣٧].

(٢) [سورة مريم: آية ٢٥].

الكرامات ومن ذلك قصة صاحب سليمان عليه السلام الذى أتاه بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه وما خصه الله به مما لا يدخل تحت قدرة سليمان عليه السلام.

وأما الأخبار في ذلك فمنها ما ورد فى الصحيح من حديث جريج الراهب قال رسول الله ﷺ : «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى بن مريم وصبى جريج وصبى آخر فأما عيسى فقد عرفتموه وأما جريج.فكان عابداً فى بنى إسرائيل وكانت له أم فكان يومًا يصلى إذ اشتاقت إليه أمه فقالت يا جريج فقال يا رب الصلاة خير أم إجابتها ثم صلى ودعته فقال مثل ذلك فصلى ودعته فقال مثل ذلك فاشتد على أمه فقالت اللهم لا تمته حتى يفتن بالمومسات، وكانت امرأة زانية فى بنى إسرائيل فقالت لهم أنا أفتن لكم جريجًا حتى يرانى فأتته فلم تقدر منه على شيء وكان راع يأوى بالليل إلى صرمعته فلما أعياها راودت الراعى عن نفسها فأتاها فحبلت وولدت ثم انها قالت ولدى هذا من جريج فأتاه بنو إسرائيل فكسروا صومعته وشتموه ثم صلى ودعا ثم نخس الغلام قال أبو هريرة وهو الراوى فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ حين قال بيده يا غلام من أبوك فقال الراعى فندموا على ما كان منهم فاعتذروا إليه فقالوا نبنى صومعتك من ذهب أو قال من فضة فأبى عليهم فبناها كما كانت وأما الصبى الآخر فإن امرأة كان معها صبى ترضعه إذ مر بها شاب جميل ذو شارة فقالت اللهم اجعل ولدى مثل هذا الصبى فقال الصبى اللهم لا تجعلنى مثله قال أبو هريرة كأنى انظر إلى النبى ﷺ حين كان يحكى الغلام وهو يرضع ثم مرت بها امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل إبنى مثل هذه فقال الغلام اللهم اجعلنى مثلها، فقالت أمه له فى ذلك فقال إن الشاب جبار من الجبابرة وأن هذه قيل أنها زنت ولم تزن وقيل سرقت ولم تسرق وهى تقول حسبى الله».

وهذا حديث صحيح ومن ذلك حديث الغار وهو صيحح قال رسول الله ﷺ : «انطلق ثلاثة رهط ممكن كان قبلكم فأواهم المبيت إلى غار فدخلوا فانحطت علهيم صخرة من الجبل فسدت الغار فقالوا إنه والله لا ينجيكم من هذه إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم اللهم إنه كان لى أبوان كبيران وكنت لا أعقهما ولا أعز عنهما مالا ولا ولداً فباتا فى ظل شجرة. يومًا وأنا أروح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أغبق قبلهما أهلا، فقمت والقدح فى يدى انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت انفراجًا لا يستطيعون الخروج منها، فقال رسول الله ﷺ وقال الآخر اللهم كانت لى ابنة عم وكانت أحب الناس إلى فراودتها عن نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين وأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها فقالت لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتحذرت من الوقوع عليها فانصرفت وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، قال رسول الله ﷺ : وقال الثالث اللهم إنى أستأجرت أجراء فاعطيتهم أجورهم غير رجل منهم ترك الأجرة التي له وذهب فثمرت أجرته حتى كثرت منها الأموال فجاءنى بعد حين فقال يا عبد الله أدّ إلى أجرتى فقلت له كلما ترى من أجرتك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال يا عبد الله لا تستهزء بى فقلت أنا لا أستهزئ بك فخذ ذلك كله فاستاقه فلم يترك

منه شيئًا اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة وخرجوا من الغار يمشون».

وهذا حديث حسن متفق على صحته.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: قال «بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت البقرة وقالت إنى لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث، فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: آمنت بهذا وآمن أبو بكر وعمر» وهذا حديث صحيح ومن ذلك ما روى أن عمر رضي الله عنه «كان فى سفر من الأسفار فلقى جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع فطرد السبع عن طريقهم حين نزل إليه وأمسك بأذنيه وقال إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه فلو لم يخف غير الله لما سلط الله عليه شيئًا» وهذا خبر مشهور ومن ذلك الحديث الصحيح «إن من أمتى مخاطبون ومكلمون فإن يك فلتت منهم يا عمر» ومن ذلك قصة سارية وهو يناديه على منبره «يا سارية الجبل» وسارية حينئذ فى نهاوند فى قتال أعداء الله وأسمعه الله صوته.

ومن ذلك ما روى أن رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمى فى غزاة فحال بينهم وبين الموضع قطعة من البحر فدعى الله تعالى باسمه الأعظم فمشوا على الماء ومن ذلك الحديث الصحيح «رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يعبأ به لو أقسم على الله لأبره» وهذه الأخبار حذفنا أسانيدها لشهرتها وصحتها والاستقصاء على ما جاء منها وصح من كرامات الأولياء وعجائب أحوالهم وغرائب مواهبهم ما يؤدى إلى الاكثار والاضجار وليس هو القصد ها هنا وإنما القصد إقامة الدليل على صحة كراماتهم ووجود مكاشفاتهم ارغامًا للجاحدين وإبطالا لقول اللاحدين.

وكيف يمكن إنكار ذلك وقد قال رسول الله ﷺ اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى، وقال الله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1] قال أهل التفسير أى المتفرسين وقد صح عن عثمان رضي الله عنه أنه دخل عليه إنسان وقد نظر إلى امرأة فى السوق فقال يدخل عليّ أحدكم وآثار الزنا فى عينيه فقال أوحى بعد رسول الله ﷺ قال لا، ولكن للمؤمن فراسة صادقة، فلا ينكر ذلك إلا طاعن فى كتاب الله وسنة رسوله وعلى المكاشفين من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

(١) [سورة الحجر: آية ٧٥].

فصـــل

واعلم أن هذه الأوصاف الشريفة لا تكون إلا لمن صفت أوصافه وصفت أحواله وخلصت أعماله وصدقت أقواله وقصرت آماله وقام بما عليه وترك ماله ولا يتشوق إلى ذلك ولا يستدعيه ولا يتعاطاه ولا يدعيه ولا يظهر من الخير ما ليس فيه ولا يكتم من حاله ما الله مبديه، فإن المعانى لا تثبت بالدعاوى والأمانى لا تنال بالتوانى، وإنما المعانى تحصل بالتقوى والصبر على البلوى والتوكل على الله فى السر والنجوى، فمن اتقى ارتقى وإلا هبط فى مهاوى الشقاء وأما من ظهر من جهال الطريق وبرز بالعدول عن التحقيق وتقشف بقشف أهل التجريد والتمزيق حتى أوقعوا عقول العامة فى الحرج والضيق وَهَوَوْا بأهوائهم فى مكان سحقيق فأولئك، هم والله الأسوؤن حالا الأخسرون أعمالا ﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾(١) .

ولقد سئلت عن الفقير الصادق وما صفته، فقلت أيها المرائى باللباس المساوى بين الحق والباطل بالالتباس أتظن أن التكحل كالحل فى القياس أو تعتقد أن من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان كمن بنى بلا أساس، تبًا لقوم صرفتهم النفوس عن النفوس وقلبهم المحسوس إلى الرأى المعكوس ورضوا من الفقر بحلق الرؤوس وترقيع الملبوس، واقتصروا من العبادة على حمل السجادة، ومن الزهادة على تخثين الوسادة، أقروا بالتوبة وأصروا على الحوبة، وحملوا السبحة للمدحة ولبسوا الطاقية المتقبة واعتمدوا على العكاز ليقال أنه فاز، وسبحوا ليمدحوا وذكروا ليذكروا وصلوا ليوصلوا وصاموا ليصانوا،

---

(١) [سورة الكهف: آية ١٠٤].

اجتمعوا للبدعة واستمعوا للسمعة وخشعوا للرفعة، فتطوعهم للطمع لا للورع وتخشعهم للرئاسة لا للسياسة، إن صحبوا ملوا وإن وهبوا غلوا وإن حوققوا قلوا وإن نوقشوا ذلوا، إن أعطوا كتموا وإن منعوا شتموا وإن أخذوا المال لحق حقه قالوا تمتعنا برزقه، وإن صالوا على أحد من خلقه قالوا صولة بحقه.

اعتقدوا أن الريبة مثبتة واعتمدوا على أن الغيبة طيبة، إن جادلوا بغير علم قالوا فتحًا وإن خرجوا عن الشريعة قالوا شطحًا، فوالذى أذل الملوك وأعز العبد المملوك وهيأ السالك للسلوك لا يقبل فقرك إن لم تكن تركن إليه ولا يرفع قدرك إن لم تتضع لديه، ولا تفيد دلوقك حتى تلوح فى أفق التوفيق بروقك، ولا تسمع دعواك حتى تقوم بينة معناك، ولا تقبل طواقيك مع وجود بواقيك ولا ينتفع بتسبيحك مع وجود تقبيحك، ولا يقوم تجريدك بتبديدك ولا تزهيدك بتقييدك ولا تمزيقك بتزويقك، وعار عليك أن تمزق الخرق، قبل أن تمزق الحرق لكن ظلمة نفسك تحجب شمس قدسك، ومألوف حسك يوحشك من حضرة أنسك ودخان خيالك يسود وجه جلالك، وعواصف فخرك تنسف جبال فقرك تأكل أكل البهائم وتشرب شرب الهيم وتتخلق بالخلق الذميم، وليس هذا هو الأمر القويم ولا الطريق المستقيم.

وإنما المراد من المريد صدق الطلب وحسن الأدب، وحسن التربية ولو لبس الأقبية، والقيام بالأوامر ولو أنه أمير أمر، وتمزيق النفوس قبل تمزيق الملبوس، وتصفية القلوب قبل تنقية الجيوب، والشروع فى الشريعة قبل الشروع فى الشيعة، والتحقيق فى الحقيقة قبل الجواز فى الطريقة، فإنه لا ينال الثواب بترقيع الأثواب، ولا يرتفع الحجاب لمن يخطر فى ثياب، الاعجاب ولا يجلس على موائد الأحباب من لم يذق باب أولى الألباب، ولا يسلك طريق

الأنجاب إلا لمن أجاب، ولا يثبت المقام إلا لمن استقام، ولا يصح الحال مدعى محال، ولا يرتقى إلى ذلك الفناء إلا لمن قد بقى فى الفناء، ولا تصح الارادة إلا بترك العادة، ولا يعرف المعروف إلا بترك المألوف ولا يعرف التفرقة والجمع إلا من علم حقيقة الشرع، ولا تنال الكرامة إلا من قال للكرى مه ولا تظهر الكشوف لمن أعماله زيوف، ولا تصدق الفراسة لمن طلب الرياسة، ولا يختص بالحضور من ارتكب المحظور، ولا يصح الوجد والموجود إلا لمن جاء بالموجود كيف ينسخ الضباء بالضياء؟ كيف يغنى السراب عن الشراب؟ كيف يعرف ذوق الشراب من قلبه خراب؟ كيف يصل إلى الأعتاب من هو إلى الآن ما تاب؟ كيف تقبل توبة الكذاب وهو من خوف العذاب ما ذاب؟ كيف يفتح الباب لمن هو غائب ما آب؟ كيف يسمع الخطاب من هو من الخبث ما طاب؟ كيف يشاهد الأحباب من هو محسوب فى الغياب؟.

(وقلت) فى معنى ذلك:

بالذوق والشوق نالوا عزة الشرف لا بالدلوق ولا بالعجب والصلف

ومذهب القوم اخلاق مطهرة بها تخلقت الأجساد فى النطف

صبر وشكر وإيثار ومخمصة وأنفس تتقطع الأنفاس باللهف

والزهد فى كل فان لا بقاء له كما مضت سنة الأخيار والسلف

قوم لتصفية الأرواح قد عمدوا وسلموا عرض الأشباح للتلف

لا بالتخلف فى المعروف تعرفهم ولا ا لتكلف فى شىء من الكلف

ما ضرهم رث أطمار ولا خلق كالدر ما ضره مخلولق الصدف

واشقوتى إذ تولت أمة سلفت حتى تخلفت فى خلف من الخلف

ينمقون مزاوير الغرور لنا بالزور والبهت والبهتان والحلف

ليس التصوف عكازاً ومسبحة كلا ولا الفقر رؤيا دلقك الترف

وإن تروح وتغدو فى مرقعة وتحتها موبقات الكبر والسرف

وتظهر الزهد فى الدنيا وأنت على عكوفها كعكوف الكلب فى الجيف

الفقر سر وعنك النفس تحجبه فارفع حجابك يجلو ظلمة السرف

وفارق الحسن وافن النفس فى نفس و غب عن الحسن واجلب دمعة الأسف

واخضع له وتذلل إن دعيت له واعرف محلك من إياك واعترف

وقف على عرفات الذل منكسراً وحول كعبة عرفان الصفا فطف

وادخل إلى خلوة الأفكار مبتكراً وعد إلى حانة الأذكار كالصحف

واتل المثانى وكرر إن عزمت على وصل الحبيب وصف ما شئت واتصف

وان سقاك مدير الراح من يده كأس التجلى فخذ بالطاس واعترف
فاشرب وغنى ولا تمنع لذى ظمأ فان رجعت بلا رى فوا أسفى

(وقد أضفت) إلى هذه الأبيات أبياتًا قلتهن فى معنى ذلك أختم بهن الكتاب والله الموفق للصواب.

ذهب الرجال وحال دون مجالهم زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على أثارهم ساروا ولكن سيرة البطال
لبسوا الدلوق مرقعًا وتقشفوا كتقشف الأقطاب والأبدال
قطعوا طريق السالكين وأظلموا سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى وحشوا بواطنهم من الأدغال
إن قلت قال الله قال رسوله همزوك همز المنتهى المتغال
ويقول قلبى قال لى عن سره عن سر سرى عن صفا أحوالى
عن حضرتى عن فكرتى عن خلوتى عن جلوتى عن شاهدى عن حالى
عن صفو وقتى عن حقيقة حكمتى عن ذات ذاتى عن صفات فعالى
دعوى إذا حققتها ألفيتها ألقاب زور نمقت بمحال
تركوا الشرائع والحقائق واقتدوا بطرائق الجهال والضلال
جعلوا المراء فتحًا وأنواع الخطا شطحًا وصالوا صولة الأدلال
وترصدوا أكل الحرام تخادعا كتخادع المتلصص المحتال
فهناك خواص الله حيث تيمموا متسترين بصورة الأشكال

فهموا خواص الله حيث تيمموا والذاكرون الله فى الآصال

والقانتين المخبتين لربهم والناطقين بأصدق الأقوال

عملوا بما علموا وجادوا بالذى وجدوا وما بخلوا بفضل نوال

يمشون بين الناس هونًا كلما صد الجهول بدوره بالاجمال

فإذا بدا ليل سمعت أنينهم وحنينهم بتضرع وسؤال

وعيونهم تجرى بفيض دموعهم مثل انهمال الوابل الهطال

متفاوتين بقربهم وبحبهم كتفاوت العمال فى الأعمال

فى الليل رهبان لخدمة ربهم ووجودهم فى الجود كالأبطال

تاهوا على كل الملوك وإنهم لهم الملوك بعزة الإقبال

فلرب أشعث حقرته دلوقه ولدى المليك هو العزيز الغالى

بوجوههم أثر السجود لربهم وبها أشعة نوره المتلالى

خمص البطون لما بهم من فاقه شعث الرءوس لروعة الأهوال

لم تخل أرض منهم قد حكموا ذات اليمين بها وذات شمال

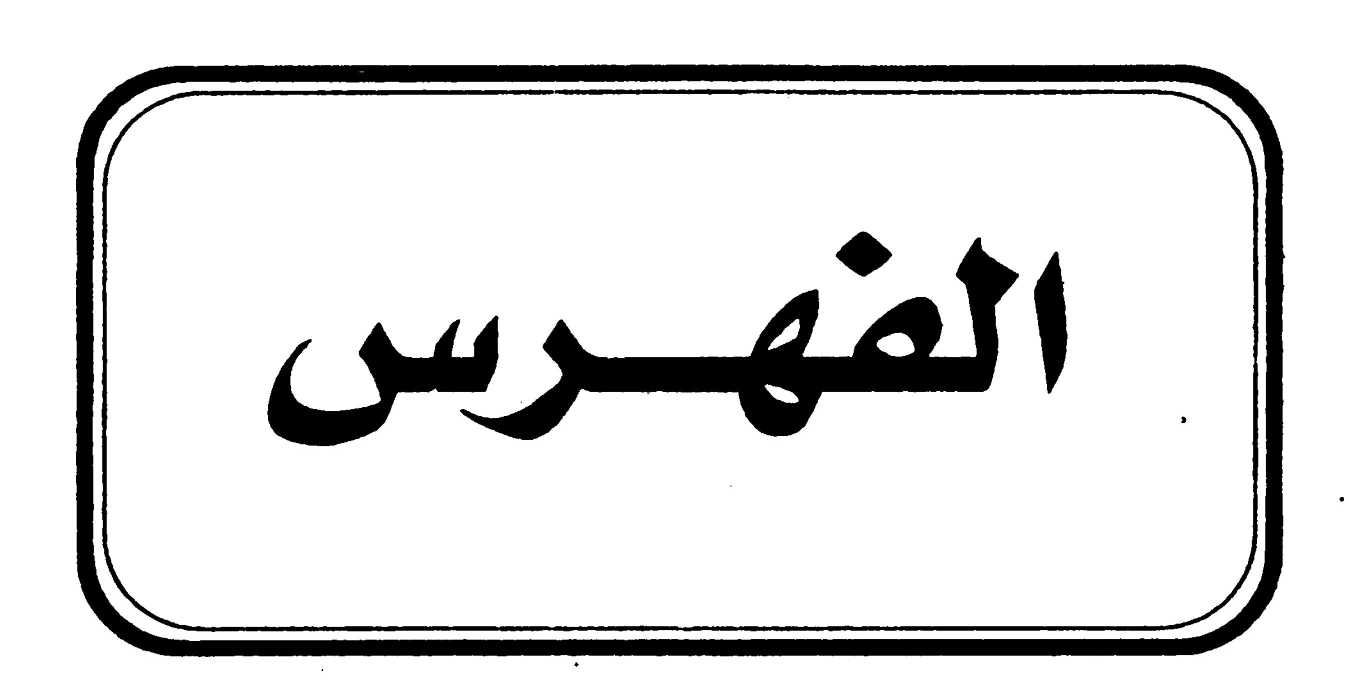
سوى لهم بين الثريا والثرى والفرش والعرش الرفيع العالى

لا ينظرون إلى سوى محبوبهم شغلوا به عن سائر الأشغال

فبهم إليك وسيلتى يا سيدى ألا وصلت حبالهم بحبالى

واخيبة الآمال إن أقصيتنى عن قصدهم واخيبة الآمال

[تم الكتاب]


الفهرس

الفهرس

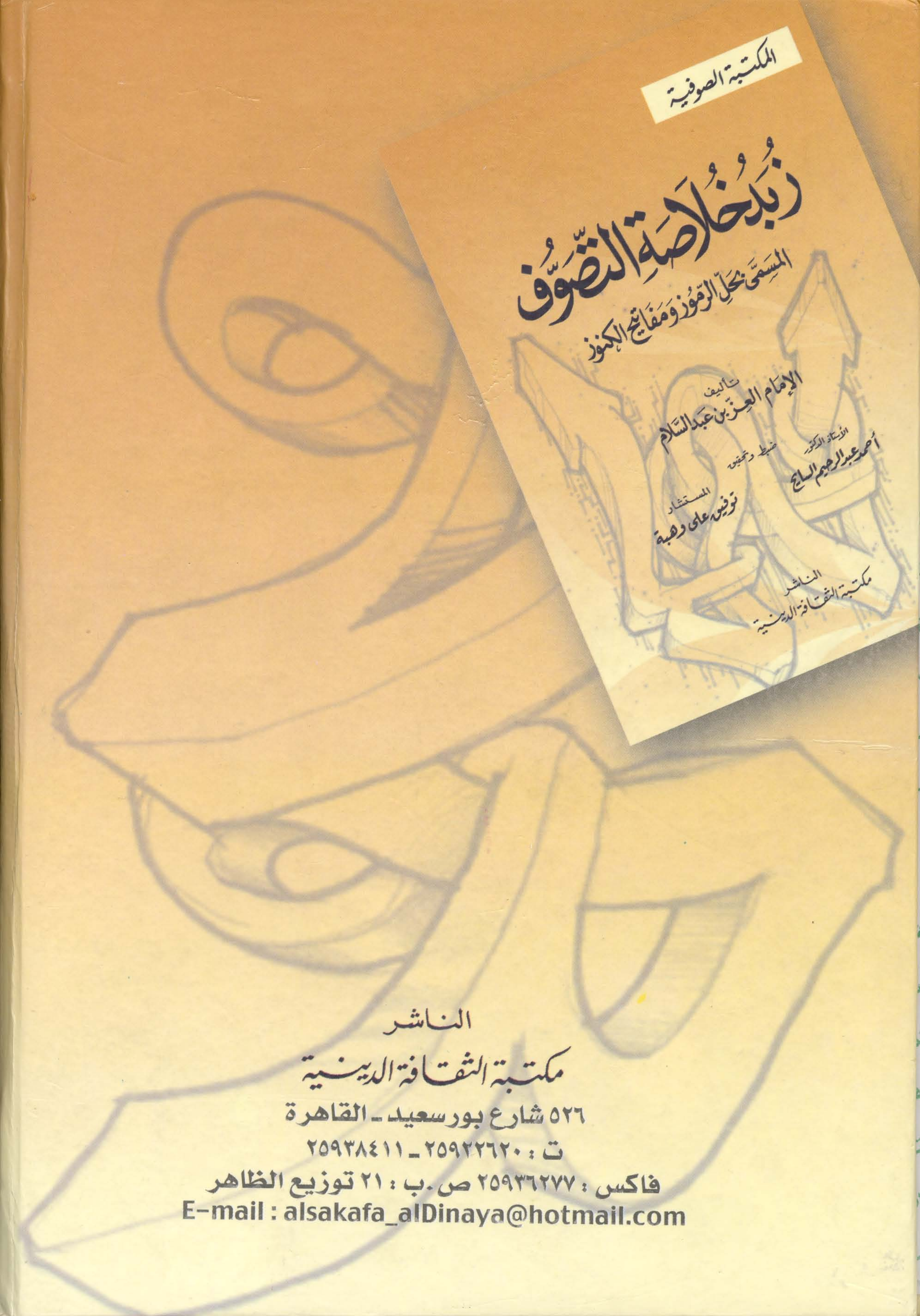
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ _ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت : ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١
فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب : ٢١ توزيع الظاهر
E-mail : alsakafa_alDinaya@hotmail.com